رئيس مجلس الادارة
رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق يصدر عن جريدة المدى
بمناسبة حملة
(كتاب للجميع)

كتاب للجميع

العدد (2521)السنة التاسعة - الخميس (28) حزيران 2012

.. مهرجان دائم للكتاب

كتب تحترق في الوطن وأخرى
من منفى إلى منفى

إن من يقرأ كثيراً تساوره الرغبة في أن يكتب
جورج كردب

من تاريخ القراءة

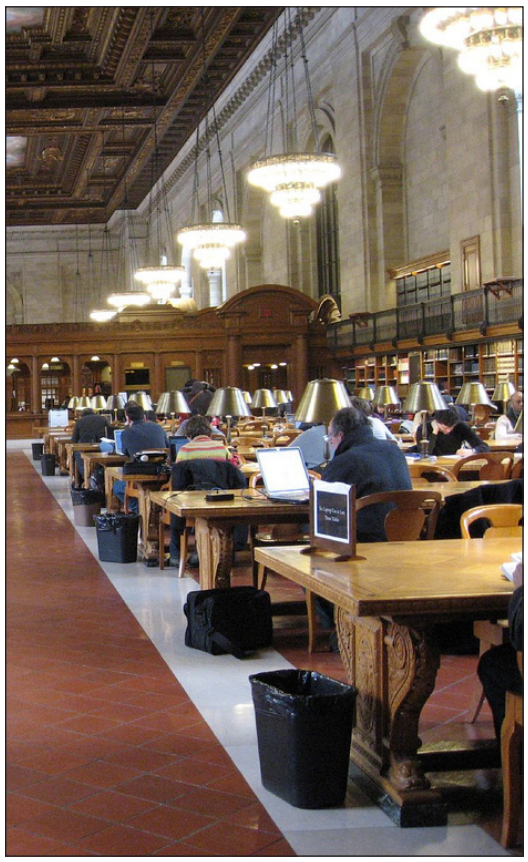

للقراءة تاريخ. فلم تكن القراءة واحدة على الدوام في كل زمان ومكان. ولأن الأجيال السابقة في تاريخ الإنسانية عاشت في عوالم عقلية مختلفة ومتنوعة، فلا بد أنهم كانوا يقرأون بطرق مختلفة ومتنوعة أيضا. ولكن مشكلة تاريخ القراءة تتمثل في أنه لايمكن قراءته اعتمادا على الرصد الزمني المتتابع فقط، مثل تاريخ أية ممارسة إنسانية أخرى ؛ لأن تاريخ القراءة يتناول نشاطا ينطوي على علاقة خصوصية بين القارئ والنص المقروء. على الرغم من أن أولئك القراء وتلك النصوص اختلفوا وتنوعوا بحسب الظروف الاجتماعية والتاريخية الموضوعية والأحوال التكنولوجية، فإن تاريخ القراءة يختلف بالضرورة عن تاريخ أي نشاط إنساني آخر.

قاسم عبده قاسم

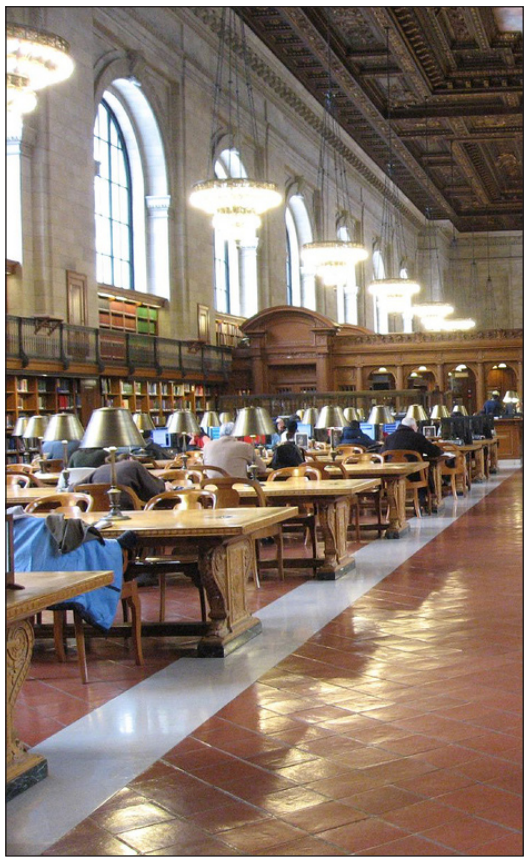

وللقراءة تاريخ طويل مثير ومتنوع. فعندما عرف الإنسان الكتابة، أو اخترعها بالأحرى، عرف القراءة حتمًا، فما كتب الإنسان إلا لكي يقرأ. وكانت الكتابات الأولى التي خطها الإنسان صورًا تمثلت في الرسوم الساذجة والخربشات التي تركها على جدران الكهوف في زمن سحيق مضى، وقد استوجبت تلك الرسوم الساذجة نوعا من القراءة الساذجة والبسيطة يفهمها إنسان ذلك الزمان في تلك المرحلة العتيقة من تاريخ القراءة. وعندما توصل الإنسان في بعض الثقافات القديمة إلى الكتابة التصويرية، التي تصور المعنى بدلا من الرموز الصوتية (الحروف) التي ابتدعها في مرحلة لاحقة، تقدمت القراءة بخطوة موازية نحو قراءة «نصوص» تحمل «معان». ومع ابتكار الأبجدية الدالة على الأصوات المنطوقة، والتي اصطلحنا على تسميتها الحروف، تطورت القراءة بحيث صارت عملية تفاعل بصرية/عقلية في إطار العلاقة الناشئة بين القارئ والنص. وهذه العملية تجمع بين مشاهدة النص المكتوب، وتجميع الحروف داخل كلمات وجمل، ثم منح النص معنى في عقل القارئ.

في ذلك الدور أيضا من تاريخ القراءة، كانت القراءة مازالت عملية بسيطة مثل النصوص التي كانت تنقل معاني بسيطة تخلو من البلاغة، ولاتعرف المحسنات البديعية، وما إلى ذلك. ولكن القراءة باعتبارها نشاطا إنسانيًا داخليًا إلى حد كبير بالنسبة للفرد، ونشاطا اجتماعيا بالنسبة للجماعة الإنسانية، فقد مرت بكثير من التطورات التاريخية من جهة، وتعددت جوانبها من جهة أخرى. وقد ارتبطت هذه التطورات بما حدث في دنيا الكتابة من تطورات، وبما حدث في العوالم العقلية التي عاشت فيها الأجيال السابقة من تغيرات. فقد انتقلت الكتابة والقراءة من سذاجة الصورة والكتابة التصويرية إلى تعقيدات الطباعة الحديثة والرقمية والاستخدام المتزامن للحرف وللصورة، أو الاستخدام الخالص للصورة لنقل المعاني والأخبار وزرع الانطباعات، كما يحدث في التليفزيون وشبكة المعلومات الدولية مثلا.

القراءة ارتباط بتاريخ الكتابة

ومن المهم أن نلاحظ أمرين غاية في الأهمية بالنسبة لتاريخ القراءة: أولهما، أن تاريخ القراءة ارتبط ارتباطا وثيقًا بتاريخ الكتابة، وبشكل كاد أن يكون عضويًا، بمعنى أن كل تطور حدث في تاريخ الكتابة منذ الكتابات الأولى على الحجر، والطين، والخشب، وجلود الحيوانات وغيرها، حتى الكتابة الرقمية بواسطة الوسائط الإلكترونية الحديثة - كان يفرز تطورا موازيا في تاريخ القراءة بطبيعة الحال. وثانيهما، أن التطورات التي جرت في تاريخ الكتابة كانت تؤدي باستمرار إلى اختفاء المرحلة السابقة، أو تضاؤل أهميتها، لمصلحة المرحلة الجديدة التي تحمل تطورات تجعل مواد الكتابة ووسائل إنتاجها أكثر سرعة وأقل تكلفة، ولكن التطورات التي جرت في مسار تاريخ القراءة لم تؤد إلى النتيجة نفسها، ذلك أن أي تطور في القراءة لم يكن ليلغي التطور السابق، لأن عادات القراءة الجديدة لم تؤد إلى استبعاد عادات القراءة القديمة وممارساتها، وإنما بقيت هذه وتلك جنبا إلى جنب. فلايزال الإنسان يقرأ الصورة والكتابة التصويرية، والمخطوطات، والكتب المطبوعة، والكتب الإلكترونية، فضلا عن الكتب التي تجمع ما بين الحرف والصورة، والصورة السينمائية أو التليفزيونية، أو الصور والكتابات على الكمبيوتر والهاتف المحمول.. وما إلى ذلك.

ويغلب على الظن أن السبب في هذا هو أن القراءة تنطوي على علاقة خاصة بين القارئ والنص المقروء، بمعنى أن القراءة عملية داخلية تحدث داخل الإنسان بدءًا من النظر إلى النص وحتى إضفاء المعنى على هذا النص، وهي في غالبها عملية تجري داخل العقل الإنساني. أما الكتابة فهي عملية تنطلق من العقل حقا، ولكنها تتشكل في الخارج وبأدوات خارجية في معظمها. وطوال تاريخ الكتابة كان تنفيذ النص المكتوب يحدث خارج الإنسان: مثل الإزميل، والريشة، والقلم، والمطبعة، والوسائط الإلكترونية. وهنا يكون طبيعيًا أن يفضل الإنسان دائمًا الجديد الذي يتميز بالسهولة والسرعة مع انخفاض التكاليف. ومعنى هذا أن التطور في القراءة عادة ما كان ماديًا وخارجيًا، على حين كان التطور في القراءة تطورًا فكريًا وداخليًا في عمومه ولكنه لم يكن ينسخ ما قبله أو يلغيه.

وآية هذا أن الإنسان لايزال حتى الآن قادرًا على قراءة كل أشكال الكتابة التي عرفها الإنسان في رحلته التي لم تتم بعد عبر الزمان. وهو في الوقت نفسه قادر على قراءة المعاني المباشرة وغير المباشرة في النص الذي أمامه، كما يستطيع استنباط المعنى من بين سطور النص وفهم ما وراء المجاز. والسبب في ذلك بطبيعة الحال يرجع إلى أن العقل البشري يمثل الوسيط الأكثر أهمية في عملية القراءة، أما بالنسبة للكتابة، فإن الوسيط كان ولا يزال أداة، أو آلة، جهازا، خارج الإنسان.

لقد شهد ربع القرن الفاصل بين القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين ازدهارًا مفاجئًا في دراسات تاريخ القراءة باعتباره فرعا جديدا من فروع الدراسات التاريخية. ويلفت النظر هنا أن جميع الدراسات التي نشرت في هذا الفرع جاءت في إطار الثقافة الغربية «الأوربية والأمريكية»، ومحاولات بسيطة ظهرت على استحياء لدراسة تاريخ القراءة في الصين. وعلى الرغم من أن «تاريخ القراءة» يشمل بطبيعة الحال القراءة في جميع الثقافات الإنسانية، فإن الدراسات والبحوث التي تمت في هذا الصدد لا تزال محصورة حتى الآن في نطاق الفكر التاريخي الغربي الذي أنتج هذا الفرع من فروع الدراسات التاريخية. ومن ثم، فإننا سنحاول تقديم صفحات محدودة من «تاريخ القراءة» على خلفية من الفكر التاريخي الغربي الذي أنتج في العقدين الأخيرين عددًا متزايدًا من الدراسات التي قام بها المؤرخون في هذا المجال.

ومن المهم أن نلاحظ أن تاريخ القراءة يهتم، في أحد جوانبه، بالكشف عن العلاقة بين القراءة وتاريخ الإنسان. وعلى الرغم من أن تاريخ القراءة يحاول الاستفادة من المادة التي وفرتها دراسات المؤرخين المتخصصين في «تاريخ الكتاب» وهي معلومات وفيرة وغزيرة، فإن هذه المادة تتعلق بالتاريخ الخارجي للقراءة ؛ من يقرأ ماذا؟ وأين؟ ومن ناحية أخرى، لاتكشف الوثائق التي حفظها الزمان سوى عن الجانب الخارجي من تاريخ القراءة باعتبارها ظاهرة اجتماعية، ولكنها نادرًا ما تكشف عن القارئ نفسه في أثناء عملية القراءة: كيف كان يقرأ؟ وهذا هو الجانب الداخلي في تاريخ القراءة باعتبارها عملية فردية يتم فيها التفاعل بين القارئ والنص.

القراءة أوربيًا

ويستوجب البحث في «تاريخ القراءة تتبع مسار عادات القراءة وأساليبها في أوربا منذ القرن السادس عشر على الأقل. ولكننا سنورد هنا نموذجين دالين في هذا المجال هما فرنسا وألمانيا لأسباب موضوعية تتعلق بمكانتهما في تاريخ القراءة الأوربية، وهي مكانة تسمو بهما عن بقية البلاد الأوربية. ومن خلال البحث في سجلات عقود النشر، ونشرة الكتب السنوية التي كانت تصدر في فرنسا منذ ذلك الحين فصاعدًا، وكتالوجات معارض الكتب السنوية التي كانت تعقد في فرانكفورت وليبزج بانتظام منذ سنة ١٥٦٤م حتى سنة ١٧٤٩م، ثم منذ سنة ١٧٩٧م بعد عودة معرض ليبزج، إلى جانب بعض المصادر الأخرى، توصل الباحثون إلى بعض النقاط المضيئة التي يمكن أن ترشدنا إلى ممارسات القراءة في فرنسا وألمانيا آنذاك. ومن ناحية ثانية وفرت الصور التي رسمها الفنانون الأوربيون عن المكتبات والقراءة معلومات مهمة عن القراءة في المكتبات العامة، ونوادي القراءة ، وبيوت الأرستقراطية والبورجوازية في هذين البلدين.

ومن ناحية أخرى، يكشف الأسلوب الكمي، الذي استخدمه بعض المؤرخين في دراسة «تاريخ القراءة»، عن الكثير من جوانب تاريخ القراءة آنذاك؛ خاصة فيما يتعلق بـ«ماذا كان الناس يقرأون». إذ تشير الإحصاءات إلى أن الإحياء الثقافي الذي شاهدته ألمانيا منذ أواخر القرن الثامن عشر ، مثلا، تجسد في حمى القراءة التي انتشرت فيما يشبه الموجة الكاسحة. فقد تضمنت كتالوجات معرض ليبزج في سنة ١٧٦٤م ألفا ومائتي عنوان، ارتفعت إلى ألفي عنوان في سنة ١٨٠٠م. وعلى مدى قرن من الزمان (منذ منتصف القرن السابع عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر تقريبًا) ارتفع إنتاج الكتب في فرنسا ليصل إلى ما يقرب من تسعمائة عنوان سنة ١٧٧٠م، بيد أن المهم في هذا الموضوع أن عناوين هذه المؤلفات تكشف عن أن الروايات، وكتب الرحلات، وكتب التاريخ الطبيعي، قد أزاحت الكلاسيكيات من فوق رفوف مكتبات النبلاء والبورجوازيين الأثرياء، كما تشير هذه العناوين إلى حقيقة التراجع الكبير في الإقبال على كتب الأدب الديني في القرن الثامن عشر.

وقد برهنت هذه البحوث والدراسات على أن نماذج الاستعارة في المكتبات الفرنسية والألمانية العامة في الفترة نفسها، كانت منسجمة ومتوافقة مع الدراسات التي تمت بالأسلوب الكمي في تاريخ القراءة

حب المطالعة هو استبدال ساعات السأم بساعات من المتعة
مونتسيكو

بشكل مذهل. وتشهد كتالوجات معرضي ليبزج وفرانكفورت على ذلك بشكل واضح تمامًا. ففي بدايات القرن التاسع عشر كانت عناوين الكتب تشي بازدهار الرواية. ومن ناحية أخرى، كشفت سجلات الاستعارة من المكتبات العامة عن أن ما بين سبعين وثمانين في المائة من الكتب المستعارة كانت من كتب الخيال الخفيفة ، وبعضها من الروايات، وعشرة في المائة من كتب التاريخ والسير الشخصية، وأقل من نسبة واحد في المائة من الكتب الدينية. والحقيقة المهمة التي تكشف عن نفسها هنا مؤداها أنه في غضون ما يزيد قليلا على قرنين من الزمان، كان عالم القراءة قد تحول تماما في أوربا، فقد صعدت الرواية والموضوعات الدنيوية على حساب الأدب الديني.

ديمقراطية القراءة

كذلك كشفت سجلات الاستعارة من المكتبات العامة عن أن عملية القراءة اتخذت مسارًا «ديمقراطيًا» منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر، إذ تضاعفت أعداد الكتب المستعارة، كما اجتذبت الكتب قراء جددًا جاءوا من طبقات دنيا إلى المكتبات لكي يستعيروا الكتب، بعد أن كانت القراءة محصورة زمنا في أوساط الطبقة الأرستقراطية والطبقة البورجوازية (بل كان منهم عدد من البوابين والخدم الخصوصيين وأصحاب الرتب الصغيرة في الجيش). كذلك صارت الكتب التي تجتذب القراء هي الأخف وزنا ؛ لأن القراء انصرفوا عن المجلدات الضخمة الثقيلة إلى الروايات العاطفية وما شابهها.

ومن المثير أن «مكتبة الملك» في باريس (والتي صارت المكتبة الوطنية فيما بعد) لم يكن روادها كثيرين في تلك الفترة ؛ وربما كان السبب في ذلك راجعًا إلى أنه لم يكن في استطاعة الباريسيين استعارة كتبها ليأخذوها معهم إلى المنزل، أو أن أمين المكتبة كان يفتحها مرتين في الأسبوع في أثناء النهار ، على الرغم من أنه كان يمنح كل قارئ من زوار المكتبة وجبة مجانية قبل مغادرتها.

ويرى أحد المتخصصين في تاريخ القراءة أنه حدثت «ثورة قراءة» قرب نهاية القرن الثامن عشر، فقد كان الناس حتى منتصف ذلك القرن يقرأون كثيرًا في نصوص قليلة (الكتاب المقدس، وكتاب التقويم، وكتاب أو اثنين من كتب العبادات)، إذ كانوا يعيدون قراءة هذه الكتب مرات ومرات. وعادة ما كانت القراءة تتم بصوت عال في مجموعات. ولكن الحال تبدل في نهاية القرن ومع بداية القرن التاسع عشر حيث صار الناس يقرأون تنويعة كبيرة من الكتب والموضوعات مرة واحدة، قد لا تتكرر، لاسيما في الصحف والدوريات.

لقد ارتبطت القراءة في أوربا آنذاك بالحياة وتطورات جوانبها، إذ كان الناس يقرأون لأهداف شخصية واجتماعية ونفعية على السواء: كان هناك من يقرأون سعيًا وراء خلاص أرواحهم، ومن يقرأون لتهذيب سلوكهم، وكان البعض يقرأون بحثا عن المعلومات التي تساعدهم على إصلاح آلاتهم وأدواتهم ، وكان بعضهم يقرأون لإغواء حبيباتهم، على حين كان البعض يريدون معرفة الأحداث الجارية عن طريق القراءة. ولهذا كان الناس يقرأون كل ما هو متاح أمامهم طلبا للمتعة والبهجة والمنفعة. ففي القرن التاسع عشر وجد الناس أمامهم فيضا من الكتب تضم موضوعات جديدة ومثيرة تمثلت في الروايات، وأدب الأطفال، والكتب التي تتناول شئون الحياة الدنيوية، فضلا عن الصحف والمجلات.

القراءة حول المدفأة

وفي داخل المنازل، ارتبطت القراءة بالسهر حول المدفأة ؛ حيث كان الناس يجتمعون في سهرة عرفت في فرنسا باسم Veillee، وفي ألمانيا باسم Spinnstube، ومعناها «السهرة». وفي تلك السهرات كان الناس يستمعون إلى واحد منهم يقرأ بصوت عال أحد النصوص، في حين كانت النسوة تمارسن أعمال الحياكة أو التطريز، والأطفال يلعبون، فيما كان الرجال مشغولين بإصلاح أدواتهم. فقد كانت الكتب البدائية تكتب لكي يقرأها أحد الذين يعرفون القراءة بصوت عال لمجموعة من المستمعين الذين لا يعرفون القراءة. وهذا ما نستنتجه على الأقل من عبارة «سوف تستمعون الآن إلى كذا..» التي كانت تبدأ بها هذه الكتب البدائية عادة.

ومن ناحية أخرى، كانت مجموعات الحرفيين (وخاصة صناع السجائر، والترزية) في القرن التاسع عشر، يستمعون إلى الأخبار التي يقرؤها عليهم من صحيفة أحد الذين يعرفون القراءة حيث كان يقف على مسافة منهم وهم يمارسون أعمالهم. وقد انتقلت هذه الممارسة فيما بعد إلى الاستماع إلى الراديو والتليفزيون. وعلى أية حال، كان سماع الكتب مفضلاً دائمًا على قراءتها طوال تاريخ القراءة بالنسبة لغالبية الناس، وهو الأمر الذي يؤكده انتشار «الكتب المسموعة» حاليًا في العالم كله.

ولكن تجربة القراءة كانت تجربة أكثر خصوصية بالنسبة لأولئك المتعلمين الذين كان بوسعهم شراء الكتب في باريس في القرن الثامن عشر، إذ كان الكتاب بالنسبة لهم رفيقًا عزيزًا في المنزل يمكن الاستمتاع بقراءته على مقعد وثير أمام المدفأة، أو في حجرة المكتب، أو اصطحابه للقراءة في الفراش قبل النوم – وهي عادة منتشرة حتى اليوم على أية حال.

نوادي القراءة

وفي الأقاليم الفرنسية ظهرت نوادي القراءة في القرن الثامن عشر، حيث كان الكتبيون يحولون حوانيتهم إلى مكتبات يمكن للناس أن يقرأوا بها مقابل رسوم زهيدة. وكان يكفي لفتح ناد للقراءة أن تتوافر الإضاءة الجيدة، وبعض الكراسي المريحة، وعدد قليل من الصور المعلقة على الحوائط، فضلا عن الاشتراك في حوالي نصف دستة من الصحف والمجلات. ويبدو أنه كانت هناك منافسة حقيقية بين نوادي القراءة هذه من أجل اجتذاب الرواد تشي بها تلك الإعلانات ووسائل الدعاية التي سادت في ذلك الوقت والتي لجأت إليها تلك النوادي. ولدينا مثال على تلك الإعلانات يتمثل في الإعلان الذي نشره بائع كتب من لونيفيل في فرنسا: «بيت مريح، جيد الإضاءة والتدفئة، مفتوح يوميا من التاسعة صباحًا حتى الظهيرة، ثم من الواحدة بعد الظهر حتى العاشرة مساء، يوفر لهواة القراءة حاليًا ألفي مجلد، تزيد بمعدل أربعمائة مجلد سنويًا..».

أما نوادي القراءة الألمانية، فكانت توفّر الأساس الاجتماعي لتنويعة متمايزة من الثقافة البورجوازية، وقد انتشرت هذه النوادي انتشارًا سريعًا مذهلاً في مدن شمال ألمانيا. وفي ألمانيا القرن الثامن عشر أيضًا ثار جدل كبير حول الولع بالقراءة الذي اتخذ شكل ظاهرة اجتماعية لافتة للنظر. واحتدم الجدل بين مؤيد ومعارض: فقد عارض البعض القراءة زاعمين أن لها تأثيرات سلبية على النظام الاجتماعي والأخلاق، وزعم البعض أنها قد تدمر الصحة العامة، بل إن أحدهم وضع قائمة في العقد الأخير من القرن الثامن عشر بالمتاعب الجسدية التي يمكن أن تنتج عن الإفراط في القراءة منها: التعرض لأمراض البرد، والصداع، وإضعاف العينين، وارتفاع حرارة الجسم، والنقرس، والبواسير، والربو.. وعدد كبير آخر من الأمراض. وعلى الجانب الآخر، رأى البعض أن القراءة يمكن أن تكون قوة من أجل الخير. ومن الطريف أن البعض وضعوا قواعد «فن القراءة» في مواجهة الزعم بأن القراءة خطر على الصحة! وقال أولئك إن الواجب مراعاة قواعد «فن القراءة»، فلا يجب القراءة بعد الأكل مباشرة، أو أثناء الوقوف، وغسل الوجه بالماء البارد، والتمشية في الهواء المنعش قبل القراءة، مع التركيز والتأمل.

كيف يقرأون؟

في السطور السابقة استطلعنا الخطوط العريضة لإجابة السؤال من كان يقرأ ماذا؟ وقد ساعدنا النموذج الفرنسي والنموذج الألماني على معرفة الشكل الخارجي والدعائم المؤسسية للقراءة في هذين البلدين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. بيد أن السؤال المراوغ، والمهم، كيف كان الناس يقرأون؟ لا يزال يختبئ في ضباب الغموض بعيدا عن متناول الباحثين على الرغم من كل ما بذله علماء النفس والأطباء لدراسة الاستجابات والانفعالات، ودراسة نصفي المخ البشري من أجل الوصول للإجابة المرضية عن هذا السؤال. وعلى أية حال فإن هذا السؤال المراوغ يرتبط بتاريخ القراءة بشكل عام، وفي جميع الثقافات والحضارات على امتداد التاريخ. ذلك أن القراءة عملية داخلية في أساسها يتم التفاعل فيها بين القارئ والنص على مستوى فردي في جميع الأحوال. ولما كان الإنسان الفرد يختلف بالضرورة عن غيره من الأفراد في بنائه العقلي والوجداني ؛ فإنه يصعب وضع نموذج عام يمكن للباحثين فهمه بشكل مؤكد.

كيف يفهم القارئ النص المكتوب؟ هل يتولد معنى النص في عقل القارئ أم أن النص يرسل المعنى للعقل؟ أليس القارئ هو الذي يكسب النص معناه بدليل اختلاف القراء في فهم النص الواحد وتفسيره؟ هل كان الناس في الماضي البعيد يقرأون مثل الناس في العصور الوسطى أو العصر الحديث، مثلا؟ وهل من يقرأ اللغة التصويرية في اليابان والصين، مثلا، يمر بتجربة القارئ الذي يقرأ لغة أبجدية مثل العربية أو الفرنسية، مثلا؟ وهل قراءة النص المباشر (مثل أسعار السلع في السوبر ماركت) تتساوى مع قراءة نص يجمع بين ما هو «مقروء» من الحروف والجمل والعبارات، وما هو «مفهوم» من صياغة النص (مثل ديوان شعر) إذا ما قام بالقراءتين الشخص نفسه؟

إن هذه الأسئلة وما يتفرع عنها بالضرورة من أمثلة تسعى لفهم كيفية القراءة لا تزال تؤرق الباحثين ومؤرخي القراءة. كما أن صعوبة العثور على إجابات لهذه الأسئلة تكمن في حقيقة أن القراءة ليست مهارة تكتسب بالتعلم فحسب، وإنما هي خبرة وتراكم معرفي مخزون في عقل الإنسان على مر السنين يختلف حتما ما بين إنسان وإنسان آخر. والقراءة في جوهرها طريقة لإضفاء المعنى على النص. وهذا الجانب من «تاريخ القراءة» لايزال بحاجة إلى المزيد من البحث والدراسة.

حقا إن للقراءة تاريخا، ولكنه يحتاج إلى جهد كثير من المؤرخين.

عن مجلة العربي الكويتي

مهرجان دائم للكتاب

■ علي حسين

منذ فجر الحضارات كانت الكتب تؤسس وتفتح لقرائها آفاقاً جديدة.. تغيّر وتعلّم وتحوّل الشعوب من النقيض إلى النقيض، ولم يخطئ همنغواي حين وصف القراءة بالمغامرة، والقارئ الذي يغامر، يكون الفوز حليفه.

الكتاب يثري العقل والنفس، ويجعل المرء في حوار داخلي خلاّق مع ذاته، يكتب ريتشارد وتلوك في القرن السابع عشر "الكتب خيرُ ما في الحياة، إنها مستشارون بلا أجر، سهلة المأخذ، سريعة في تلطف. أحص كتبك في باب جرد الجواهر، إنها مستقبل الزمن، وسفينةُ المسافر العائد أو جواده، وخير تسلية للرجل المشغول، ومسكن التعب الكسول، وخير كاهن للذهن، حديقة الطبيعة. إنها قربانُ الروح الأخير، وهي إزاء الموت شرابٌ منبِّه".

فالكتاب هو الصاحب في كل زمان، يصحبنا أينما كنا، معنا، لا يفارقنا، ينام في حضننا، في المطبخ، فوق المخدة، على السرير، في المكتب،، في السيارة، في اليد، في جيب السترة التي نرتديها، هو المنقذ من الوحدة والملل والسأم.

يكتب الجاحظ في مديح الكتاب قائلا:

"الكتاب نِعْم الذخر والعدة، ونِعْم الجليس والقعدة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل، الكتاب وعاءٌ مُلئ علما، وظرف حُشي ظرفا.. فما رأيت بستانا يحمل في ردن وروضة تنقل في حجر ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء غيره، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى، آمن مَنْ في الأرض وأكتم للسر من صاحب السر، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة، والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجوّد بيانك، وفخّم ألفاظك، وعمّر صدرك"، وإذا كانت أشياءٌ كثيرةٌ مما نقتنيها تَبلى، وتُفقدُ، فإن الكتاب وَحْدَهُ الذي يبقي شاهداً، معرفتُهُ حيةٌ، وأثره باق.

إننا نقرأ الكتاب ومن خلاله نقرأ العالم.. فالقراءة تمنحنا فرصة الخروج من رتابة وجودنا متوحدين، من عزلتنا ومحدودية خبراتنا. فهي التي تمنحنا ما لا تحصى من الفرص والتجارب والخبرات.. أن نتخاطر مع أولئك الذين تركوا لنا خلاصة تجاربهم بين بطون الكتب منذ آلاف السنين وحتى اليوم. وحب القراءة، بهذا السياق، يصدر عن فضول متأصل في الروح الإنسانية: فضول المعرفة، من اجل فضول المعرفة هذه سعت مؤسسة المدى الى ان يكون الكتاب ونشره جزءا من مهمتها الأساسية، هدفا تسعى من خلاله إلى نشر المعرفة فكان أن أصدرت مطبوعها المجاني الكتاب للجميع إضافة إلى دعم نشر الكتاب وتوزيعه من خلال سلسلة من الإصدارات تعد اليوم في طليعة المطبوعات العربية.

فقد شرعت "المدى" منذ سنوات باتخاذ الخطوات العملية لإنجاز مشروعها الطموح "الكتاب للجميع" والذي يشرف عليه مجموعة من المفكرين البارزين، حيث يهدف المشروع إلى إعادة الاعتبار إلى أهم العناوين الصادرة خلال القرنين الماضيين، وذلك من خلال إعادة نشر أمهات الكتب العربية والعالمية التي تغطي سائر حقول الثقافة والفنون والمعرفة الإنسانية.وكانت معارض المدى للكتاب والتي احتضنتها اربل خلال السنوات الماضية وجها اخر لمهرجان القراءة الذي نريد ان نجعل منه تقليدا من تقاليد الثقافة العراقية

اليوم تطلق "المدى" مهرجانها الجديد للقراءة بحجم أوسع على أن يكون الكتاب رفيقا للجميع.. ففي خطوة تعد الأولى بالعراق خصصت مؤسسة المدى مبلغ ٥٠٠ ألف دولار لدعم الكتاب من اجل أن يصل بسعر مناسب إلى كل القراء.

مهرجان المدى خطوة في طريق نشر المعرفة.. ومبادرة لإعادة الحياة إلى تقاليد القراءة التي اشتهر بها العراقيون على مر العصور.

سُئل عبدالله بن محمد بن اسماعيل البخاري عن دواء للحفظ فقال: إدمان النظر في الكتب

حكمة إسلامية

مكتبات مثقفي العراق.. كتب تحترق في الوطن وأخرى من منفى إلى منفى

رشيد الخيون

كانت المكتبة أول هدف للشرطة السرية بالعراق، فما أن يُعتقل الباحث أو الكاتب، إلا وبعثرت مكتبته بحثاً عن كتاب ممنوع. وكان الأهالي يخفون كتب أحبائهم من المعتقلين بطرق شتى، كدفنها تحت الأرض، أو نقلها إلى جار مؤتمن. وآخرون كانوا يقطعون رأس البلية، الكتاب، بحرقه أو إتلافه بطريقة ما. وما أكثر كنوز، لا صلة لها بالسياسة، أتلفتها أمهات لا يقرأن ولا يكتبن، ويتخيلن كل كتاب مصيبة. وكل مثقف، عاند السلطة، أو تجرأ على عدم مسايرتها، قصة مع مكتبته داخل العراق، ناهيك من حياة الترحال التي عاشها المنفيون منهم، وما يتعلق بتأسيس المكتبات، ثم لا يحمل منها أكثر من عشرين كيلوغراماً، وهو الوزن المسموح به في الطيارت، حين يغادر إلى مناف وملاجئ أخرى، وما أكثرها.

مَنْ بحث في كتاب «العراق بين احتلالين» لعباس العزاوي (ت ١٩٧١)، سيقدر عدد المصادر التي استخدمها هذا المؤرخ، وسيتعاطف مع أحزانه، وهو على فراش الموت، على مصير مكتبته العامرة، وقلق ابنته على ذخيرة والدها. وكذلك الحال بالنسبة للأب ماري انستاس الكرملي (ت ١٩٤٧). كان مصير مكتبة العزاوي، حسب ما نقله لي الأديب مير بصري (ت ٢٠٠٦)، أنه شاهد عمال يرمون بالكتب من الشبابيك إلى بطن سيارة مكشوفة، وكأنهم يرمون بطابوق. أما مكتبة الأب الكرملي، فقد حشرت في مكتبة الموصل، وتفرقت شذر مذر، من دون أن يحفظ اسمه عليها، ومعلوم ما كان فيها من نفائس الأثر.

وللعلم أن نشأة المكتبة الوطنية العراقية كانت فضلاً من أفضال هذا العالم، إذ تبنى نشأتها العام ١٩٢٢، وبدأت تحت اسم مكتبة السلام، ثم نقلت محتوياتها لتأخذ اسم المكتبة العامة، ثم المكتبة الوطنية (١٩٦١)، وألحقت بوزارة الثقافة والإرشاد (قزانجي، المكتبات في العراق).

أتذكر عندما صحبني الأديب سالم الدباغ (توفي منتصف الثمانينات)، وكنت أحد تلاميذه، إلى بيت الأديب واللغوي هاشم الطعان (ت ١٩٨٠) هالني عدم رؤية جدارن في الدار، فقد غلفت بالمجلدات، وتكوم بعضها على الروازين، وتحت السلالم. وما زاد دهشتي، أنه كان ينوي شراء مكتبة أحد المتوفين من العلماء!.

وسألت هيثم نجل الطعان عن مصير مكتبة والده، فقال بحسرة كبيرة إنه بعد وفاة والده، واعتقاله، ثم إطلاق سراحه، من دون إكمال مدة الحكم ٢٥ عاماً، جاءه الأديب ماجد العزي، وكان بغيتاً، وعلى صلة جيدة بوالده، واقترح عليه بيعها إلى جامعة بغداد. لكن الجامعة رفضت شرطه، وهو أن تخزن تحت اسم صاحبها.

ثم أعاد عليه الكرة واقترح بيعها إلى جامعة الكوفة، التي قبلت بالشرط. وسريعاً حُملت الكتب باللوريات تحت نظرات أفراد الأسرة الحزينة، ففي كل كتاب لفقيدهم لمسة من يده وخفقة من روحه، وقد جمعها، رغم العوز، كتاباً كتاباً.

ولما ذهب هيثم إلى جامعة الكوفة لاستحصال ثمن المكتبة، وهو لايزيد على ما يُقابل أربعمائة دولاراً، كانت المفاجئة أن الكتب «فرهدت» قبل دخولها إلى الجامعة، وقسمت بين الأساتذة والمسؤولين، ولم يبق منها غير كتيبات، وليس هناك اسم لصاحبها ولا يحزنون. والأنكى من هذا لم يتمكن من استحصال المبلغ، وقد أنسل ماجد العزي من العملية برمتها. هذه باختصار قصة إحدى مكتبات أدباء ومثقفي العراق في الداخل.

كان الراحل مير بصري حزيناً على مصير مكتبته، خائفاً أن تلاقي مصير مكتبة العزاوي، وأن يزال اسمه من على كتبه مثلما أزيل اسم الكرملي. مازالت مكتبة بصري بداره بلندن. عائلته لم تفعل شيئاً بها، إلا إنها ما تزال بعيدة عن بغداد، وكانت نيته أن تكون هناك. ومن ثمرات مكتبة بصري كتبه في طبقات المجتمع العراق «أعلام السياسة في العراق الحديث»، «أعلام الأدب في العراق الحديث»، «أعلام التركمان..»، «أعلام الكرد..» وغيرها.

يعيش المعاناة نفسها المعماري محمد مكية، ٩١ عاماً، بعد أن أُغلق ديوان الكوفة، ووجدت مكتبته طريقها إلى الخزن، في مخازن باردة، وكان يمر بها يومياً ملامساً ورامقاً صفوفها، وفيها كتب تعود القرن السابع عشر.

وما زال ينتظر نقلها إلى بغداد أيضاً. لكن بغداد، وقبل ثلاثة عقود، لاهية عن الكتاب بعذابها، وليست هناك جهة تؤمن الكتب إلى مستقرها في القسم المعماري الذي أسسه (١٩٥٩)، ووعد فيها أحفاده وحفيداته من المعماريين عند زيارته بغداد في نسيان الماضي. بدأ مكية بجمعها منذ الأربعينيات، وأخذ يستخدمها كذخيرة، تصاحبها مكتبة من المخطوطات العربية والفارسية، ومجموعة نادرة من اللوحات الفنية لكبار الفنانين العراقيين.

ووجدت وزير المال الأسبق عبد الكريم الأزري، ٩٨ عاماً) محتضناً مكتبته الشخصية كالأب، معتنياً بها كل العناية. ويحاول من أول وهلة إشعارك أنه لا يعير كتاباً، ويرمقك بنظرة اعتراض وأنت تتصفحه، وكأنه ما صُنف إلا له.

فيها الكثير من الكتب النادرة، المعروضة بتبويب مكتبي سليم، وبنظام مريح للباحث. إنها تحتل أكثر من غرفة من داره، ولا ينوي أن يهديها أو يوصي بها، وذلك لشدة تعلقه بها، فبفضلها صدرت له عدة مؤلفات خاصة بالتاريخ السياسي العراقي، إلا أنه ربما أكثر حظاً من غيره، فلديه ولده حيدر مولع بالكتب، لديه مكتبته الخاصة، بعد أن نشأ نشأة طويلة بالعراق.

أما زميله وزير الزراعة الأسبق عبد الغني الدلي، ٩٣ عاماً، فما زال يبحث عن طريقة لحفظ ما في حوزته من كتب، لعله يتمكن من ضمها إلى مكتبته التي تركها ببغداد بدار خاصة. وكان من أمانيه أن يعود إلى العراق، ويؤسس مكتبة في مسقط رأسه سوق الشيوخ، يجمع فيها شتات كتبه. وأبلغني عن مصير مكتبة صديقه القديم الحقوقي عبد المجيد القيسي (ت ٢٠٠٢)، صاحب كتاب «التاريخ يُكتب غداً». وكان توفي بدولة الإمارات المتحدة، وذووه ما زالوا ينتظرون العثور على مكتبة تستوعبها بطريقة تحفظ اسمه ردحاً من الزمن، بعد أن قُطعت حبال الوصل ببغداد، ومازالت مقطوعة. وما يذكر عن القيسي أنه أقام مجلس فاتحة على روح الملك فيصل الثاني في اليوم الثاني من ١٤ تموز، عندما كان قائمقام في قضاء الرفاعي، وقد سجن وأطلق سراحه فمجلس الفاتحة لا يُعد جريمة يعاقب عليها القانون.

وفي لقاء بعمان أخبرني علي نجل اللغوي إبراهيم السامرائي الأكبر (ت ٢٠٠١) عن مصير مكتبة والده، إنه لما طلب منه أن يصبح مصححاً لغوياً في القصر الجمهوري (١٩٨١)، بامتيازات يحصل عليها كبار موظفي القصر، ورد والده على الطلب بالقول: «أنا أستاذ جامعي، وكل وقتي أقضيه بين كليتي والدار، فليس لي غيرهما».

وكان محسوباً على اليسار من غير انتظام في حزب، بمعنى أنه لم يكن على وئام مع السلطة. عندها توجس السامرائي شراً مما ستأتي به الأيام القادمة، على خلفية رفضه طلباً موجهاً من صدام حسين، فحمل مكتبته وأسرته وهجر العراق، وعمل في عدة بلدان، ومنها اليمن، وبسبب تدخل أحد الإخوان المسلمين العراقيين وبعثيين عراقيين هناك، تغير موقف الجامعة منه، فعاد ثانية واستقر بالأردن حتى وفاته. أما مكتبته، التي تنقل بها من مكان إلى آخر، فأهديت إلى المجمع الثقافي بدبي، ومكتبة المجمع العلمي الأردني، ولا ندري هل يحتفظ باسمه عليها أم لا. وكانت ثمرتها حوالى مئة كتاب من تصنيفه، وأبرزها تحقيق كتاب «العين» للفراهيدي. وكان محمد مهدي الجواهري (ت ١٩٩٧) لا يطمئن إلا لمشاركة السامرائي في تحقيق ديوانه.

عراقيون آخرون أرقهم السؤال حول مصير مكتباتهم، بعد سنوات طويلة من جمعها، وحملها بين العواصم، وتحمل شكاوى العائلة وضيق العيش بسببها، إضافة إلى تكاليف شراء الكتب نقلها وخزنها. صمت نجدة فتحي صفوة عندما سألته عن مصير مكتبة عباس العزاوي، وماذا ستفعل عائلة مير بصري، إن كان لديه تصور، بكتبه، وقبل الإجابة قال: «وأنا كذلك! لا أدري ما سيؤول إليه مصير مكتبتي». وهي تملأ شقة خاصة بها، بالإضافة إلى الكتب الموجودة في شقته المجاورة، التي يسكن فيها. وهو يفكر بإهدائها إلى إحدى الجامعات، والأولى إلى العراق، إن كان هناك مَنْ يستقبلها. إنها مكتبة ثرية بالكتب التاريخية، وعلى وجه الخصوص تاريخ العراق وتاريخ المملكة العربية السعودية. ولا أدري كم سيكلف نقلها إذا حسم أمره، واختار الإقامة بالأردن، كما يفكر.

المحامي جعفر البياتي قلق كذلك على مصير مكتبته، وهو محقق وقارئ نهم، جمع من الكتب ما جمعه في داره بفيينا، وبفضلها حقق كتاب «سراج الملوك» لمحمد بن الوليد الطرطوشي (ت ٥٢٠هـ)، صنف كتاب «مفهوم الدولة عند الطرطوشي وابن خلدون». إن مكتبته هي مدفأته في الغربة، وقد توسط عقده التاسع. ولده ليس له الاهتمام نفسه، وهو يدرك تماماً موقف وريثه منها، ولا يريد تخيل المكان من دون المكتبة، أو حملها إلى متاجر الورق ليُعاد تصنيعها، والطريق إلى بغداد ما زال وعراً للمسافر، فكيف لمكتبة!

ويراود القلق نفسه المحقق والباحث جليل العطية، المقيم بباريس، وقد جمع مكتبة من نفائس كتب التراث، وما يختص باهتمامه، حتى أغنته في العديد من مصنفاته عن زيارة المكتبات العامة، فعمل مثل «الذخائر الشرقية» لتركة استاذه كوركيس عواد، وعشرات التحقيقات لا توفر مصادرها إلا مكتبة عامرة. ولما فاجأته بالسؤال: هل فكرت بمصير مكتبتك؟ قال: «كان الأمل، وما زال، أن تستقر ببغداد، ضمن مركز بحوث ودراسات، أو جمعية تهتم بالتراث والتاريخ، يستفيد منها الباحثون والدارسون». وخصوصاً بعد ما فقدت مكتبات بغداد من درر الكتب. إلا أنه حتى هذه اللحظة ليس لديه تصور آخر، ولا مفك من القلق على سبعة آلاف كتاب، ومصورات لكتب قديمة ومخطوطات. إنها محنة حقيقية، فأولاده بعيدون عن الاهتمام بمثل هذا الميراث، ولا يعنيهم الكتاب العربي، نتيجة نشأتهم في باريس.

اقتصادي النفط فاضل الجلبي، تحدث عن ترحال طويل ومستمر، كلما شيد مكتبة ودعها بمكان، ولا يحمل منها غير القريب إلى نفسه، إلا أنه تحدث بمرارة عن مكتبة نفيسة ببغداد، التي أودعها في دار أهله، منضدة في صناديق تحتل السرداب، الذي

الكتاب معلمٌ صامت
اولوس جاليوس

استهرت به بيوت بغداد القديمة، وقد داهمها الماء، ولم ينج منها كتاب واحد. كانت تحتوي على مؤلفات أدباء من الأربعينيات والخمسينيات، مزينة بإهداءاتهم الشخصية، ومنها دواوين الشاعرة نازك الملائكة وإهداءات بخطها.

كان الشاعر فوزي كريم متهيئاً للإجابة أكثر من غيره، بعد معايشة القلق سنوات طويلة على مكتبته، التي تكونت لديه خلال ثلاثين عاماً، واستحوذت على غرف الدار وممراتها. وإلى جانب الكتب لديه مكتبة موسيقية، يصل عددها إلى خمسة آلاف عمل موسيقي، ولوحات فنية من رسمه، ومن أعمال فنانين آخرين، يحلم أن يُلحقها بمكتبته الخاصة ببغداد. وفعلاً خطى خطوة عملية، عشية سقوط النظام، لينقلها إلى بغداد، لتكون تحت تصرف مركز ثقافي أو مكتبة، وليس لديه شرط سوى أن تُخزن باسمه، مثلما تجري العادة. طلب، بُعيد سقوط النظام، من وزير الثقافة مفيد الجزائري توفير فرصة النقل، وتأمين مصير لمكتبته بمستوى تعلقه بها وقلقه عليها، إلا أن الأمل أخذ يتضاءل، وعاد يداهمه القلق من جديد.

كنت أزور الأديب سمير نقاش (ت ٢٠٠٤) بمانشستر، وتحتل مكتبته فضاء الدار الأسفل وغرفاً من الطابق العلوي. كان يتحدث عن خزنها، وإمكانية نقلها، في ما بعد، معه إلى بغداد. ولما سمع بتصريحات وزراء عراقيين جدد، أن لا عودة ليهود العراق مثل بقية اللاجئين، بذريعة أن وزير الدفاع الإسرائيلي عراقي الأصل، رد بألم: «ربما هو الوحيد الذي سيعود»! وكان لا يكتفي بطبعة واحدة من الكتاب، فإلى جانب طبعة قديمة، ترقى إلى نهاية القرن التاسع عشر، وجدته يتابع الطبعات الجديدة، ويضمها إلى رفوف مكتبته. وبعد وفاته اتصلت بيَّ زوجته فكتوريا، تقول: «ماذا أعمل في الكتب، التي ملأ سمير بها الدار، وصرف عليها شقاء عمره؟ مات سمير ووجدت مكتبته طريقها إلى صناديق مغلقة بلا فهرسة، قد تتآكل من الرطوبة.

أما الشاعر صلاح نيازي فقد حسم قلقه سريعاً، وحافظ على التناسب بين حجم الدار ورفوف المكتبة، وجعلها ثابتة على أربعة آلاف كتاب، حيث أخذ يعزل شهرياً ما يفيض لديه ويهديه إلى مكتبة جامعة لندن، أو مكتبات بريطانية أخرى، وهو يرى أنها أكثر حفظاً وصوناً من تسفيرها إلى بغداد، شأنها شأن الآثار العراقية، التي تحتفظ بها المتاحف الأوروبية بكل قداسة، مصانة من نوبات فرهود أو تحطيم واتجار. وفي حديثه تذكر هوس الأديب والمترجم نجيب المانع (ت ١٩٨٢) بجمع الكتب، في كل مدينة وعاصمة يحل بها. أسس مكتبة بالزبير، ثم ببغداد، ثم ببيروت، وقد باعها بـ١٨ ألف دولار، ليؤسس مكتبة جديدة بلندن. وما تزال شقيقته الكاتبة سميرة المانع تحاول إيصالها إلى جامعة البصرة، حيث مسقط رأسه، أو أي خزانة كتب عراقية تحتضنها.

هذه الأسماء مجرد نماذج قليلة تعكس عمق القلق على مصائر الذخائر من الكتب والمخطوطات، والأعمال الفنية، وكل واحد من هؤلاء، وغيرهم المئات من مشاهير الثقافة العراقية، تركوا مكتبات عامرة لهم بالعراق، موزعة صناديقها على منازل الجيران والأصدقاء، ومنهم مَنْ هجر المكان، وطرحها أمانة عند غيره، ثم انقطعت الأخبار، ومنهم مَنْ غادر الحياة، وصار مصير المكتبات إلى الباعة المتجولين، مفروشة على قارعات الطرق.

كثيراً ما تشير الإهداءات على صفحاتها الأول أنها تنحدر من مكتبة عالم من العلماء، أو شخصية مهمة من شخصيات بغداد، اضطر إلى بيعها لمواجهة تكاليف الحياة، وهذا ما تناقلته الأخبار عن مكتبة الناقد علي جواد الطاهر (ت ١٩٩٦). حقاً إنها مصائر مقلقة، فليس لمثقف عراقي طوال الأربعين عاماً الأخيرة تمكن من الاطمئنان على ذخيرة حياته، وعصارة جهده، المكتبة. وربما يكون السؤال أعظم، لو علمنا بمصائر مكتبات كبار مثل: مصطفى جواد، علي جواد الطاهر، ومهدي المخزومي، وكوركيس عواد، وميخائيل عواد، وطه باقر، محمد أمين زكي، ونعيم الناشي، وفؤاد سفر، والطبيب راجي عباس التكريتي وغيرهم.

ويضيف د. حربي: «القضية ليست قضية شخصية بل قضية تراثية، فالتراث يخص كل فرد من افراد امتنا العربية ولا يخص يوسف زيدان وحده، وقد طالبت رسميا مناظرته هو وادارته علميا فلم يوافق متعللا بأننا لسنا قرناء فقمت بذلك على صفحات الجرائد وسأظل أطالب بذلك فأنا متخصص في الرازي وأعكف على تراثه المخطوط منذ ١٢ سنة ونشرت عنه ٧ كتب حتى الآن».

ومن جهته يقول د. يوسف زيدان، الذي يحظى بمكانة دولية كمدير بمكتبة الاسكندرية ومستشار لهيئة اليونسكو ومشرف على عدة مشروعات دولية منذ عدة سنوات: «إن د. حربي قد افتعل مشكلة وهمية معي بإصراره على المشاركة في مؤتمر «المخطوطات الموقعة» بعد ان تم رفض مقترحات مشاركته والتي لم ترق للمستوى المطلوب. وفي يوم افتتاح مؤتمر دولي بالمكتبة احدث شغبا فطرده افراد الأمن، فسارع بتحرير محضر مدعيا أنني طردته من المؤتمر، وقد حفظ المحضر. ثم طالب بعد ذلك بتشكيل لجنة لتدلي برأيها في «مقالة في النقرس». ولم يكتف بهذا بل قام بعمل حملة سب وقذف في الصحف، مما دفعني لاقامة دعوى سب وقذف في ٢٠ سبتمبر (أيلول) الماضي امام محكمة جنايات الاسكندرية وصدر فيها حكم يدين د. خالد حربي والزامه بدفع غرامة مالية وتعويض مالي. وحول ما جاء بتقرير لجنة جامعة القاهرة أكد زيدان إن التقرير يحتوي على افتراءات ليس لها اساس من الصحة وأنه يشتمل على مغالطات وتهويلات وإساءات كثيرة في حقه مؤكدا نية اللجنة في التشهير به، وهو ما دفعه إلى ان يرفع دعوى قضائية يرد فيها على مغالطات التقرير الـ٥٠ ويطالب فيها بالتعويض. ويرى زيدان إن الدعوى تستهجن التقرير حيث أنه قد تعدى مجرد الحكم على الكتاب الصادر منذ عدة أعوام، وإنما تعرض للخلفية العلمية لزيدان، والتشكيك في نزاهته واتهامه بالتعدي على التراث العربي الاسلامي الذي قضى عمره يعمل لخدمته ونشر فيه كتبا يصل مجموع صفحاتها إلى ٢٤ الف صفحة، ونال عنها عدة جوائز دولية منذ كان في الثلاثينات من عمره، وآخرها جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي للعام الحالي، وذلك عن كتابيه «الشامل في الصناعة الطبية» لابن النفيس و«مقالة في النقرس» للرازي.

وبحسب ما جاء بالدعوى فإنه من الغريب ان يجعل اعضاء اللجنة .على حد قول زيدان .من أنفسهم غيورين على الرازي اكثر منه هو شخصيا، وهو الذي نشر الكتاب بعد اكثر من ١٠٠٠ سنة ظل فيها مجهولا، كما أن كتابه «هو من أكثر الكتب التي نشرت للرازي أناقة وفائدة حيث انه اشتمل لأول مرة في التاريخ على النص العربي ومعه ترجمات إلى الانجليزية والفرنسية والألمانية له وصورة طبق الاصل من مخطوطته.

ويقول د. زيدان ان الكتاب. محل الخلاف. في مجال تاريخ الطب العربي، وهو مجال بعيد عن مجال تخصص اللجنة، وكان من الأحرى أن يصدر التقرير من المختصين بمركز تاريخ العلوم بجامعة القاهرة.

الشرق الاوسط/٢٠٠٧

من طرائف رواد المكتبات

بقلم: كوركيس عواد

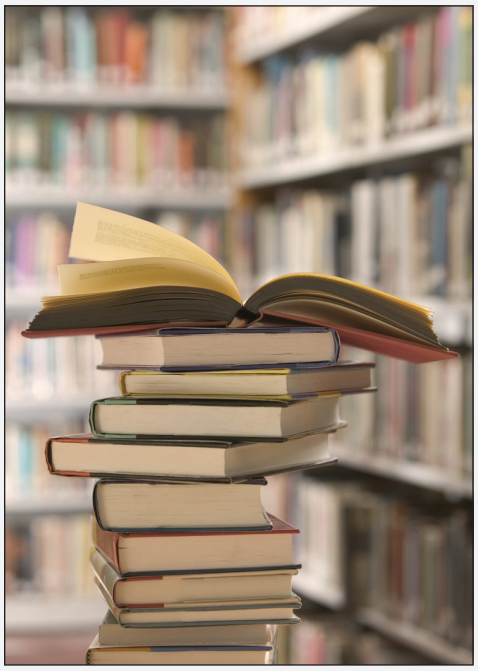

يعد العلامة العراقي الراحل كوركيس عواد «ت ١٩٩٢م» من أكبر من تعامل مع الكتاب في الشرق العربي، وقد قدم في هذا المجال عشرات الدراسات التي خدمت كل معني بالكتاب وبخاصة فيما يتعلق بمجال المخطوط وأماكن وجوده، والمطبوع وتاريخ نشره وخدمات الباحثين في هذا المجال، ومن أعمال كوركيس عواد أنه أصبح أميناً عاماً للمكتبة العامة مما جعله يتحصل على الكثير من المواقف مع رواد المكتبة ما بين مواقف طريفة ومواقف جادة، وقد سجل في أحد مقالاته العديد من المواقف الطريفة التي تجري من بعض الرواد ممن يجهل أبجديات التعامل مع الكتب فرصدها في مقال لطيف نشر في كتاب الذخائر الشرقية، فإلى هذه المواقف:

مرت سنوات عديدة، وأنا أعمل في «مكتبة المتحف العراقي» وتمر في ذهني اليوم، بعد مضي هذه الأعوام، خواطر وذكريات شتى، تتصل بالمكتبة، وبعملي فيها، وبالمطالعين الذين يؤمونها.

ولعل أقدم تلك الذكريات، هي تلك «النواة» الصغيرة التي كانت تقوم منها «مكتبة المتحف العراقي» يوم تسلمتها من سلفي السيد «دانيال عشو»، فقد كانت مجلداتها يومذاك لا تتعدى بضع مئات، بل انها كانت على وجه التحديد ثمانمائة واربعة مجلدات لا غير!.

كان ذلك في أواخر سنة ١٩٤٦م، ثم أخذ عدد مجلدات هذه المكتبة يتزايد سنة بعد أخرى، حتى أصبح يناهز اربعين ألف مجلد.

أما ما تحتويه هذه المكتبة من أمهات المراجع العربية والافرنجية، وما تحرزه من نفائس المخطوطات الأثرية القديمة، فله حديث غير هذا الحديث، لعلي أعود اليه في فرصة أخرى.

وسأورد في هذه النبذة طرائف تتعلق ببعض المطالعين، تمثل شيئاً من أحوالهم وألواناً من غرائب مطاليبهم.

من هؤلاء المطالعين من يعد «زبائن» المكتبة الذين لا تحول الشواغل دون اختلافهم إليها والإفادة من كنوزها، وفيهم من يتردد إليها بين الفينة والفينة.. ومنهم لا نراه فيها إلا لماماً.

هؤلاء الذين يترددون الى المكتبة يختلفون اختلافاً بيناً في علمهم وخلقهم.

ولا شك في ان معظم هؤلاء المطالعين، يقصدون المكتبة للمراجعة والتتبع، ولكنهم يتفاوتون في مدى ما يجنونه من تلك المطالعة، ذلك ان طائفة منهم تؤم المكتبة للمطالعة «الحقيقية»، واعني بذلك ان الواحد منهم يجيء وقد وضع له خطة محكمة للمطالعة، فهو أعد اسماء الكتب التي يبتغي مراجعتها تلك الزيارة، وتراه يكب الساعات الطوال على ما جاء من أجله، حتى ليكاد لا يفرط بشيء من وقته.

وما زلت أذكر جماعة كنت معجباً بدأبهم ومثابرتهم على المطالعة ولن يتأتى لي في هذه العجالة إلا التنويه ببعضهم، فمنهم الأساتذة: نجلاء عز الدين، والمرحوم زكي محمد حسن، وأحمد سوسة، ومجيد خدوري، وعبدالحميد العلوجي، وحسين جميل.

وعلى عكس ذلك، تجد بعض المطالعين، لا يقر له قرار في المكتبة ما لم يكلم من يجاوره او يتحرك من موضعه او يلتمس موضعاً آخر يدخن فيه، ولعل من سوء الطالع، أن يكون هؤلاء أكثر عدداً من الصنف الأول الذي ألمحنا اليه. ومن ثمة لن نذكر منهم إلا من كان ذا شأن أدبي مرموق!.

وفي وسعي، ان اضع على رأس قائمة هؤلاء، اصدقائي الأعزاء: احمد حامد الصراف، ويوسف عز الدين، وعبدالرزاق الحصان، ولعل الأستاذ الحصان وليأخذني بحلمه أكثر المطالعين جلبة وأشدهم ازعاجاً! ذلك أنه امتعه الله بالصحة والعافية دؤوب على السعال والنحنحة وما تدرج بينهما من أصوات، وما نجم عنهما من ملمات! ثم ان طلباته للكتب لا نهاية لها، فهي لا تقوم في الغالب على شيء «معين» من المراجع، وإنما تطلب الكتب عفو الساعة!.

وتجد جماعة من المطالعين، مفتقرة الى مزيد من العلم، فيأتي طلبها للكتب وفيه الغريب والمضحك أحياناً، والأمثل على ذلك تفوق الحصر. أذكر بعضها على سبيل التمثيل:

فقد جاء أحدهم يطلب كتاباً يجهل عنوانه واسم مؤلفه. ولكنه يذكر من أمره شيئاً واحداً هو أنه طالع فيه في المكتبة قبل ثلاثة عشر عاماً!.

وجاء آخر يطلب كتاباً اكتفى من صفته أن «جلده ناجوردي»!.

وسأل مطالع عن كتاب «فيه صور، وهو يباع في مكتبة المثنى ب ٣٥٠ فلساً»! ترى ماذا يكون هذا الكتاب؟ وماذا في وسعنا ان نصنع إزاء هذا الطلب؟.

وأراد مطالع آخر كتاباً أشير إليه في بعض الهوامش بصورة «المرجع السابق»، فقد سبق ذكر عنوانه كاملاً. فأراد هذا الشخص ان نعطيه «المرجع السابق»!.

وتطلب بعضهم كتاباً لا يذكر عنوانه ولا موضوعه ولا اسم مؤلفه، وإنما يعلم أنه رأى نسخته في المكتبة وهي ذات غلاف مصور بالألوان!.

ويضيق بعض المطالعين ذرعاً حين يضطرهم البحث الى مراجعة معجم عربي قديم، فلا يهتدون الى ما يبتغون، ذلك ان أغلب تلك المعجمات يتبع نظاماً في ترتيب الكلمات لا يفطن اليه إلا من وقف على الطريقة التي اتبعها أصحاب تلك المعجمات، وهم من القدامى.

وأما معرفة سني وفيات المؤلفين المشهورين، فقليل من يعنى بها. والجهل بذلك يسوق الى ورطات مختلفة. طلب أحدهم مني، ان أدله في «تاريخ الطبري» على الموضع الذي وردت فيه حادثة سقوط بغداد على يد هولاكو. فلما قلت له ان الطبري لا يذكر هذه الحادثة، فغر فاه وقال أيمكن ان هذا المؤرخ العظيم يفوته مثل هذه الحادثة الشهيرة؟.

ولن اختم هذه الكلمة، دون القول بأن الله قد ابتلانا بصديقنا الحبيب الأستاذ قاسم محمد الرجب، فلقد اعتاد حين يريد التخلص من بعض زبائنه «الثقلاء». ان ينفي وجود ما يطلبون من كتب عنده، وينصحهم ان يراجعوها في مكتبة المتحف العراقي، مع علمه بعدم وجودها، فيقصدون المكتبة طلباً لتلك الكتب. ولكن دون جدوى. وقد يطول الأخذ والرد. ولا يحسم المسألة إلا تلك «الفهارس» الدقيقة التي تمتاز به هذه المكتبات، فتسعفها في مثل هذه المواقف الحرجة.

عن كتاب الاثار الشرقية

القراءة تطيل العمر
عباس محمود العقاد

مكتبات شارع السعدون

علي عبد الأمير عجام

حتى أواخر ثمانينيات القرن الماضي، كان "شارع السعدون" يستعد كل مساء ليكون قلب بغداد النابض، فيما تخلد الاطراف الاخرى من المدينة الى بعض من الراحة جراء نهار عمل طويل. قبل ان تنطفئ في بغداد معالم كثيرة، منها "شارع السعدون" الذي صار الشارع الاشهر في العاصمة بعد غروب مجد "شارع الرشيد"، وتحديدا منذ اواسط سبعينيات القرن الماضي، كان "السعدون" يبدأ حياتيا من جهة اليمين اذا كنت قد دخلت اليه من جهة ساحة التحرير، فثمة اشارتان الى حيوية اي مدينة معاصرة: وسائل الاسترخاء و وسائل المعرفة. من ركائز امكنة الاسترخاء في المكان كان كافتيريا " كيت كات" وفيها كان موعدي مع اولى مغامراتي العاطفية في الجامعة، قبل ان ينفتح المكان لمشاوير اخرى تختلط فيها اصوات الاصدقاء الضجرين بنبرات خافتة لكتاب وصحافيين كانوا يجدون بعض الراحة في المكان القريب من ابرز مكتبات بغداد الحاشدة بالمعرفة واثاث الغنى الروحي، فثمة "مكتبة النهضة" لصاحبها المكتبي هاشم والتي عملت فيها بعضا من الوقت، و"مكتبة التحرير" لصاحبها بناي، ولاحقا " المكتبة العالمية" التي ادارها الكاتب والناقد جاسم المطير.

والى جانب "كيت كات" ثمة كافتيريا مشابهة هي " فلسطين اكسبريس". و المكانان كانا ملتقى لراحة عوائل بغدادية وعشاق ورجال انيقين تصحبهم كتبهم او صحفهم، فضلا عن سيدات جميلات كن يدخلن منفردات او ضمن حلقات من الصديقات اللائي كن يخرجن وقد توهجن بطعم القهوة التركية، وزادتهن "حلاوة" تنويعة من حلويات ومرطبات كانت تقدم بافانين من الاواني التي يتراقص فوق حليبها المثلج، فستق حلبي أخضر.

ومن كان بدأ جولته من المكتبات ولمسة النعومة في "كيت كات" سيخرج الى رصيف عريض ليلقي نظرة الى الجانب الآخر من الشارع الذي جاء نفق ساحة التحرير ليهشم منظور جمالياته المكانية، فمنع مجال الرؤية المطلوب لمشاهدة صحيحة لنصب الحرية، وغيّر الحضور المريح لامكنة ومعالم منها "عمارة مرجان" بلمسات حانية (استدارة العمارة برشاقة من شارع السعدون الى الجانب الاخر المطل مباشرة على ساحة التحرير) صممها من يصفه استاذ العمارة الحديثة د. خالد السلطاني بانه " ابو العمارة العراقية الحديثة" المهندس جعفر علاوي العام ١٩٥٤. ومن المحال المنفتحة على "شارع السعدون" انطلاقا من الطابق الارضي للعمارة الشهيرة، كانت هناك "مكتبة المثنّى" التي تأسست عبر مقرها الاصلي في "شارع المتنبي" في العام ١٩٣٦، وحرص صاحبها قاسم محمد الرجب، على ان تكون منبر نشر امهات كتب التراث، فضلا عن كونها مصدرا لتزويد الكثير من مكتبات البلاد بما تحتاجه من كتب الدراسات التاريخية والسياسية والفكرية.

واذا كان الطرف السابق من " شارع السعدون" الذي يبدأ من "مدرسة الراهبات" التي حولها نظام البعث الى "ثانوية العقيدة"، قد توفر على ملمحي الاسترخاء الفكري(المكتبات) والجسدي (كافتيريا "كيت كات" ومن ثم محل حلويات جواد الشركجي وقريبا منها "مطعم نزار" الشهير)، فان الطرف الثاني كان يحاكي هذين الملمحين وان بدرجة اقل، فالاسترخاء الروحي يمثله وجود "مكتبة المثنى" و "جامع الاورفلي" فيما الاسترخاء الجسدي كان يوفره "مطعم تاجران"، ومطعمان صغيران في شارع فرعي من شوارع البتاويين أولهما كان يقدم الاكلات الفلسطينية وابرزها الفول والحمص والقدسية واغلب رواده من طلبة الجامعة، والثاني كان يقدم "الكباب السوري" ويؤمه اصحاب المحال التجارية وحرفيو المنطقة القادرون على دفع ثمن الوجبة التي تزيد على الدينار اواخر سبعينيات القرن الماضي.

غلبة الجانب الروحي والاسترخاء الفكري هي للجهة الاولى من "شارع السعدون"، فما ان تخرج من " المكتبة العالمية" لتنعطف نحو الشارع الفرعي المؤدي الى "شارع أبي نواس"، حتى تكون قريبا من اكبر ورشة للثقافة العراقية في توهجاتها التجديدية خلال ستينيات القرن الماضي وقسما كبيرا من سبعينياته، حيث " مقهى المعقدين" في تسمية شعبية تهكمية للمنشغلين في الثقافة واسئلتها، ووصفهم بـ"المعقدين". شخصيا لم اتعرف على الغنى الروحي والانساني في اجواء ذلك المقهى، الا انني كنت قريبا منها لنحو سنة يوميا حين عملت في " مكتبة النهضة"، ولاحقا كأمين صندوق في "مطعم الرصافة" أو "مطعم ابن ضعيفة" في تسمية مناكفة لمطعم شهير آخر قريب هو "ابن سمينة". ومع كل مرة كنت احتسي فيها الشاي المعطر بورقة خضراء (تسمى "عطرة" وهي ليست من ورق النعناع ولا من حبات الهيل، بل هي اقرب الى طعم الهيل ولكن بمظهر ورقة النعناع الخضراء)، ويقدمها لي صاحب المقهى ابراهيم او ابنه خليل، مستعيدا في المقهى وان كان ضيقا، فضاءات من اثر مبدعين عراقيين حلموا بالثورة والعدالة والتغيير ثم افترقوا بقسوة الوطن وسياساته بين منفيين ومعدومين ومنتحرين ويائسين صامتين من جهة، ومن صاروا جزءا من المؤسسة الثقافية لنظام البعث من جهة اخرى.

وفي حين كنت تستمر بالمسير في شارع السعدون بعد ان تعود اليه اذ انتهيت من احتساء الشاي المعطر بارواح "المعقدين" واثرهم الذي اضاء ليل بغداد وداعب روحها لسنوات، كنت ستصل الى "مكتبة الطريق" التي شعت مع اجواء الانفتاح السياسي في سبعينيات القرن الماضي، وكانت محطة للشيوعيين واصدقائهم المعروفين بنهم القراءة وحب المعرفة، فيما من الطرف الاخر كانت هناك "مكتبة الصياد" التي عمل فيها الصحافي علي حيدر، وكانت مصدرا جيدا لكتب الثقافة الادبية المعاصرة، لكنها كما " مكتبة الطريق" التمعت فجأة لتختف بطريقة مفاجئة أكبر. وفي الثمانينيات ظهرت في مكان قريب من "ساحة النصر" مكتبة هي أسم على غير مسمى، فـ"مكتبة اصالة البعث"، كانت تضم اكبر عدد من الكتب المناهضة لفكر البعث، وكان صاحبها (ابو طه) الذي وسع عمله من بائع للصحف الى مكتبي خبير، يقدم لمن يثق بهم اصدارات وكتبا مخبأة تتصل بافكار ومفهومات مناقضة لفكر البعث.

فسحة الزمن الجميل

ساحة النصر، كانت مكانا محوريا في حياتي، مكانا مخصصا لمواعيد انتظار وفسحات بهجة كانت تبدأ منها لتأخذني الى عروض سينمائية كانت شكلت منعطفات في تاريخ الشاشة البيضاء (عروض سينما "سمير أميس" و"بابل" و"النصر" وقليلا منها في "النجوم" و"اطلس")، وعروض مسرحية في "مسرح الستين كرسي" حيث ورشة عوني كرومي و"مسرح اليوم" و "مسرح بغداد" حيث التجديد والغنى الفكري والفني في عروض "فرقة المسرح الفني الحديث". كانت "ساحة النصر" مكان تجمع لاصدقاء ومواعيد مع صديقات ولا حقا حبيبات، مثلما هي المكان الذي ينطلق منها الباصان المرقمان ٢١ و ٦٢ اللذان كان يأخذاني الى مكان قريب هو "ساحة النسور" او " الاربعة شوارع" في اليرموك ومنهما اكمل المشوار في باص ٤٥ الى البياع حيث أقيم. ومنها ايضا كنت اصعد الباص الشهير رقم ٤ وهو في طريقه الى آخر محطاته "ساحة الاندلس" حيث اتحاد الادباء وامسياته الشهيرة، او الركوب في الباص ذاته ولكن في الاتجاه المعاكس او الباص رقم ٢ باتجاه "ساحة الميدان" للقاء اصدقاء من الحلة في بيتهم بالوزيرية او في القسم الداخلي بـ" الباب المعظم" أو في فسحة البهجة الانيقة التي توفرها حديقة "البريتش كانسل". وكان اختيار الباص مقصودا، فهو يعني فرصة الاطلالة على امكنة وشخوص (الباص ذي الطابقين بخاصة)، والتأمل انطلاقا من فكرة في كتاب او صحيفة، وفي حال كانت الحاجة الى وسيلة نقل اسرع، فثمة سيارات الاجرة الصغيرة في خط النقل الشهير: ساحة النصر- ساحة الميدان، وكانت باغلبها سيارات من نوع "فولغا" الروسية الصنع. الانتظار في "ساحة النصر" (قبل ان تتحول الى اكبر تجمع للاطباء وبالتالي المرضى) كان

جعلت كتبي أنيس من دون كل أنيس
لانني لست أرضى إلا بكل نفيس
عبدالله بن المعتز

متعة لا تضاهى، حيث فسحة لقراءة مقال في صحيفة او مجلة، ومتابعة فصل كنت بدأته في رواية او واحد من كتب السيرة التي ادمنت قراءتها، مثلما هي فسحة للتأمل بين وجوه جميلات واستنشاق عطورهن او التمعن في رقة وجرأة ما يلبسن من ثياب.

وبالقرب من ساحة النصر في حال المضي قدما في "شارع السعدون" تنتشر الكثير من البارات التي كنت اكره منظرها المطل على الشارع حيث كان يتبارى كثير من روادها بمنظر تجميع اكبر عدد من قناني البيرة على موائدهم، ضمن مشهد للشراهة كنت اجده غاية في البذاءة والسلوك الرخيص، فيما كان "بار الفارابي" الانيق المطل على "شارع ابي نؤاس"، مكانا افضله للقاء الاصدقاء وقضاء ليلة جميلة اخرى بعد ان انتقلنا اليه تخلصا من ضجيج "بار ليالي السمر". وفي تلك الفسحة من شارع السعدون، وتحديدا القريبة من "سينما أطلس"، كان المقهى المطل على الشارع انطلاقا من مدخل دار السينما ذاتها، وفيه كان يتجمع هواة الشطرنج ومدمنو الطاولي ورجال ونساء ينتظرون موعد بدء العروض السينمائية، الا انني نادرا ما اختبرت الجلوس في المقهى حتى في حال انتظاري بدء العروض وكنت افضل الدخول الى مكان قريب هو "تسجيلات صوت الفن الحديث" الذي كان عمد الى تقليد جميل لم اتعرف اليه لاحقا الا في لندن ونيويورك، وهو في تخصيصه اجهزة تسجيل مع "هيد فون" يمكن من خلالها للزبائن ان يستمعوا الى ما يفضلونه من الحان واغنيات قبل اقتنائها. وعبر ذلك التقليد كان يمكنني ان انتشي بالحان قصيرة، تبدأ من "هوتيل كاليفورنيا" للفريق الغنائي "ايغلز" ولا تنتهي بجديد السمراء البريطانية التي ذاع صيتها منتصف سبعينيات القرن الماضي تينا تشارلس، مرورا بفيروزيات عذبة كثيرة.

ومن الامكنة التي كانت ترّق لي كثيرا في شارع السعدون، وتنقلني الى ايحاءات عدة، تتمحور في فكرة السفر والاتصال مع المجتمعات الاخرى، كانت مكاتب شركات الطيران الاجنبية، فكان مكتب "لوفتهانزا" بلونيه العميقين الازرق الغامق والاصفر، كما لوني الشركة، ومكتب "اير فرانس" بالوانه "الابيض والارزق والاحمر كما العلم الفرنسي، ومكتب "ايران اير" بعلامته المميزة لرأس حصان اسطوري اقرب الى الطيران، فضلا عن "مكتب توماس كوك" المختص باصدار "الترفل تشيك" الذي عادة ما كان يفضله المسافرون كوسيلة لتأمين المال في خارج البلاد بدلا من حمل النقود، وهو ما كان اقرب اليوم الى "بطاقات الضمان". مكتب الشركة المالية الشهيرة كان درسا في الاناقة والترف، لجهة بساطته ولكنها بلاغة البساطة وغنى ملامحها. الاناقة المكتبية تلك كانت تجد صداها في مكاتب شركات عراقية مختصة باستيراد الساعات الثمينة وبيعها: جواد الساعاتي ووكالة شركة "رادو" وقبلها "رولكس".

الاتصال مع المجتمعات الاخرى كانت له علامات اخرى في شارع السعدون، ومنها "مكتبة مكنزي" الشهيرة التي تراجعت مكانتها مع منتصف سبعينيات القرن الماضي تزامنا مع صعود قيم التشدد "الوطنية" و"القومية" والاتجاه الى التعريب الاجباري في الثقافة والتعليم العالي. وليس بعيدا عن تراجعها واغلاقها لاحقا ان البلاد كانت تزداد انغلاقا وعزلة وصعودا لقيم العداء للاخر ووصمه بالمؤامرة. واذا كانت "مكتبة مكنزي" ضحية هذه القيم في عدائها للاخر "الاجنبي"، فان مكتب صحيفة "طريق الشعب" التابعة للحزب الشيوعي والمقابل تقريبا لـ"مكتبة مكنزي" كان النسخة "الوطنية" من ضحايا قيم التشدد الوطني والقومي البعثية، فقد اغلق الباب المؤدي الى بيت انيق مطل على الشارع، ومعه اغلق الطريق الى مكان تعلمت منه اولى معارفي الصحفية، واولى مباهجي في النشر الادبي وتحديدا في كتابة قصيدة النثر، ذلك الشكل الكتابي الذي ستمتنع الصحيفة عن نشره لاحقا، حين ابلغني لاحقا الشاعر حميد الخاقاني بان قصائد النثر تثير حفيظة السلطات في وزارة الثقافة والاعلام وتحديدا الوزير الشاعر شفيق الكمالي الذي كان يعتبر "قصيدة النثر مؤامرة على الامة العربية".

"ترزي الندى"

من ذلك المبنى الانيق لطالما كنت خرجت انيق الروح مبتهجا بقصص نشرت لي في صفحة "ادب الاطفال" او بتحقيقات واخبار قصيرة عن اصدارات ونشاطات فنية وادبية في الصفحة الاخيرة، ومقالات مترجمة في صحفة للطلبة والشباب، كانت رائدة حينها، اذ قلدتها صحف عربية كبرى ولكن بعد عشرين عاما، في تخصيصها ملاحق للشباب وقضاياهم، وكلها جاء طوعيا وجزءا من عملي صحفيا متدربا، على يد كتاب وادباء وصحافيين وكتاب واكاديميين كانوا يشعون ابداعا ومحبة وانفتاحا فكريا وانسانيا قل نظيره.

انه مكان ينث "ندى" على الروح ليس اقل من الندى الذي يختصر الاثر الانساني في حضور "ابو ندى"، توفيق الخياط، في صومعته الحرفية والثقافية والانسانية التي وإن كانت تضيق الا انها وحتى في اشد ايام العراق قسوة: صعود الديكتاتورية وسنوات الرماد في حربي ايران والكويت ولاحقا الحصار، كانت تنث ندى يقلل في الروح جفافها.

محل توفيق الخياط كان قريبا من مكتب "طريق الشعب" واقرب الى "سينما بابل" بل هو في اول الشارع المتفرع من "شارع السعدون" والمؤدي الى "مسرح بغداد"، وكنت تعرفت على اول لمسة منداة منه حين اصطحبني اليه اخي قاسم اثر خروجنا من "طريق الشعب"، لاتعرف من خلاله على كيف يمكن لانسان يبدو "عاديا" ان يختصر عمقا انسانيا وتاريخيا وثقافيا في حكمة شخصية مؤطرة بالحكمة العميقة. ولم ازر "ابو ندى" الشيوعي النبيل الحالم بعد السبعينيات متوقعا انه غارد البلاد هربا من ملاحقة نظام البعث المؤكدة له، حتى فاجأني الصديق الفنان مقداد عبد الرضا في أواسط الثمانينيات بان ندخل الى محل "ابى ندى" للسلام عليه، فتصلبت مكاني مترددا من لقاء من توهمت انه لم يكمل معنا فصول المأساة والرعب، وآثر "الرحيل طلبا للسلامة" كما هي الفكرة شبه الثابتة عند اغلب العراقيين الذين كانوا ينظرون الى رحيل اصدقائهم او زملائهم بحثا عن مكان آمن لم يكن الوطن قادرا على توفيره. ولم اكن انا بعيدا عن مثل النظرة التي اختبرت لاحقا عدم انسانيتها وقسوتها بعد ان صرت احد ضحاياها من خلال رحيلين، الاول كان اختياريا في العام ١٩٩٤ والثاني قسريا في العام ٢٠٠٤.

"ابو ندى" الانيق المنكب دائما على اضفاء لمسات حرفته، كان بندى لقاء الاصدقاء ذاته، ولكن بشيء من الاطراقة العميقة والنبرة الاكثر خفوتا في الحديث، وبكثير من الاشارات الموجزة الحكيمة تعليقا على اوضاع البلاد في فصول محنتها المتصلة. سألني اولا عن اخي قاسم، دون ان ينسى السؤال فيما اذا كنت اواصل الكتابة، لابلغه بقائي على قيد الحياة الثقافية، دون ان اقترب من محظورات السياسة في العمل الثقافي حينها، فانا خارج المؤسسة الثقافية الرسمية ولم اكن موظفا في اي منها، ولست عضوا في اي منها عدا اتحاد الادباء، واواظب على النشر في مجلة "فنون" ولا حقا "الف باء" و صحيفة "القادسية" و اكاتب مجلة "اليوم السابع" الباريسية عبر كتابات في نقد الموسيقى وبعض من نصوص شعرية رمزية وقراءات نقدية في نتاجات أدبية جديدة.

وبقدر ما قابل تلك الاخبار بشيء من "ندى" ابتسامته، فانه لم يتردد عن ان يدق جرس انذار في روحي، حين كان يرى سوءا اكبر ستمضي اليه البلاد، لم اكن انا حقا اراه ناهيك عن تحسس بواعث مخاطره، التي كان يبث لي بها في كل مرة التقيه، الى أن كسر ظهر البلاد في العام ١٩٩١، حين صار الندى في ابتسامته حزنا شفيفا ينسجم مع نظرة متأسية وكلاما كثير الخفوت اقرب الى الاهات المتصلة منه الى ان يكون حروفا ومفردات.

وفي الايام الاخيرة من وجودي في بغداد وقبيل مغادرتي لها في العام ١٩٩٤، كنت اديرعيادتي الخاصة في مجمع الشؤون الزراعية والبيطرية بمنطقة "السنك"، وكان الطريق الى بيتي القريب من المسرح الوطني في الكرادة يمر بي يوميا على ركن "الندى" الانساني في بغداد، وهو ما جعلني اتوقف عند "ابي ندى" محاولا التطهر مما علق بي من اسئلة القمع والحصار وغبار الحروب وانشغالات تجارة الادوية واللقاحات، وفي واحدة من اشاراته اللافتة والنادرة، ابلغني توفيق الخياط بان نبرة من الغضب والنقد الحاد والمباشر للنظام والاوضاع البلاد هي المميزة لحديثي، دون ان ينسى التنبه لما كنت لم اقرره بعد، فهو توصل الى اعتبار تلك النبرة الغاضبة، مؤشر يأس سيدفعني الى الرحيل. ومرة اخرى يرى "ابو ندى" ما لم اكن اره، فبعد نحو سنة من تعليقه ذاك، توجهت الى محله مودعا اياه دون ان اتمعن لا في حديثه ولا بملامحه، اذ كنت مطرقا الى داخلي الغاضب والصاخب واليائس.

وفي احدى زياراته الى منزلي بعمّان حيث ندى العراق لم ينفك يلطف اجواء حياتي ويؤرقها ايضا، ابلغني الصديق مقداد عبد الرضا، ان "ابى ندى" رحل، تاركا لروح العراق ان تفجع بقوة، وان تنشغل بمعاينة فصولها وهي تمضي قدما نحو ازمان تفتقد القلوب "الندية"، مثلما الامكنة تغلق فصول نداها ومسراتها شيئا فشيئا لتستحيل الآن شواهد على مدينة بلا قلب، مدينة الحواجز الكونكريتية.

× فصل من كتاب بعنوان "نوستالجيا" الذي سيصدر قريبا

معارض الكتب الاولى في بغـــداد

خاص بالمدى

في حديث ماتع مع الاستاذ باسم عبد الحميد حمودي عن الكتب والمكتبات القديمة ببغداد، ودورها الثقافي والحضاري الرائد،انجر الحديث الى فكرة اقامة المعارض الخاصة بالكتب وبواكيرها في العراق الحديث. وهذا مااثار كاتب هذه السطور على البحث عن الامر.

ولعل التفكير باقامة معارض الكتب في بغداد لم يبدا الا بعد ان اصبحت تجارة الكتب تقوم على اسس تجارية صحيحة.فلم تعرف بغداد او اية مدينة عراقية اخرى معرضا للكتب والمطبوعات الا بعد ان سعت بعض المؤسسات الثقافية الى عرض انشطتها للجمهور. كما لم يكن من اقامة المعارض اي غرض تجاري.... ففي عام١٩٣٨ اقامت مديرية الاثار العامة معرض المخطوطات العربية في متحف الاثار الاسلامية في خان مرجان،وهو اول معرض للكتب يقام في بغداد، حتى ان المعرض الصناعي والزراعي سنة ١٩٣٢ لم يضم معرضا للكتب على الرغم من تنوع معروضاته.

وفي سنة ١٩٤٧ اقام المعهد الثقافي البريطاني معرضا للكتب الانكليزية الحديثة في العلوم والاداب والفنون كافة. وقد لقي اقبالا كبيرا. ثم اقام المعهد المذكور في سنة ١٩٥٤ معرضا للكتب الانكليزية التي تبحث في الموضوعات العراقية منذ بدء الطباعة حتى العشرينات. وقد استعان المعهد بعدد من المكتبات العراقية العامة والخاصة كمكتبة المتحف العراقي ومكتبة توفيق وهبي المؤرخ والوزير الكردي،ومكتبة يعقوب سركيس المؤرخ الكبير ومكتبة بهاء الدين نوري المترجم و العسكري. وكانت اقامة هذا المعرض الفريد من نوعه، مناسبة طيبة لاطلاع المترجمين العراقيين على جملة صالحة من الكتب المطبوعة قديما وتبحث في تاريخ العراق واحواله المختلفة.

وكانت احدى دور النشر البيروتية، وهي ((دار الكشاف))،قد اقامت معرضا للكتاب اللبناني منذ ظهور الطباعة في لبنان في اواسط القرن الثامن عشر حتى سنة ١٩٤٩ التي اقيم فيها المعرض. ولاريب ان صلة صاحب الدار فؤاد حبيش بالعديد من ادباء وكتاب العراق كانت دافعا لاقامة المعرض. كما انه كتب في جريدته ((المكشوف)) ان الاستاذ رفائيل بطي كان محرضا على قيام المعرض.

ثم شهدت بغداد بعض المعارض الكتبية المتخصصة الاخرى. فعندما اقيم المهرجان الالفي لابن سينا في العشرين من اذار ١٩٥٢، اقامت مديرية الاثار العامة معرضا لكتب ابن سينا المخطوطة والمطبوعة وما كتب عنه بمختلف اللغات. وقد نال المعرض اعجاب العلماء والكتاب والصحفيين الذين حضروا المعرض. واشتركت فيه مكتبات عامة وخاصة كمكتبة المتحف العراقي ومكتبة الاوقاف العامة ومكتبة الخلاني العامة ومكتبة عباس العزاوي ومكتبة صادق كمونة ومكتبة كوركيس عواد، كما كان للكتبي العراقي الكبير قاسم الرجب دور في تهيئة بعض الطبعات النادرة من الكتب. وعرضت الادارة الثقافية في الجامعة العربية مصورات نادرة لبعض مؤلفات ابن سينا. وعندما احتفلت دار المعلمين العالية سنة ١٩٥٥ بذكرى تاسيسها اقامت معرضا للكتب المطبوعة.غير ان اشهر معارض الكتاب العراقي، هو الذي اقامته مكتبة الخلاني العامة ببغداد وسمته معرض الكتاب العراقي،خلال الفترة من ١٤ – ٢١ نيسان ١٩٥٥. فقد عرض في هذا المعرض زهاء اربعة الاف عنوان لمطبوعات عراقية تمثل مئة عام من تاريخ الطباعة والتاليف في العراق. فقد تضمن نماذج من الصحف والمجلات العراقية والنشرات الرسمية والكتب المدرسية بلغات مختلفة.

وبعد ثورة تموز ١٩٥٨،اقامت المكتبة العامة في بغداد (وسميت بالوطنية فيما بعد) معرضا للكتب العراقية والصحافة الصادرة في العراق خلال العام الاول من عهد الثورة. وفي منتصف الستينات اقام السيد شمس الدين الحيدري صاحب (المكتبة الاهلية) ببغداد،معرضا للكتاب العراقي في قاعة (الفن الحديث)، نال الاستحسان ولقي اقبالا كبيرا، وهذا ما نبه القائمين على تنظيم معرض بغداد الدولي الى الحاق عدد من قاعات العرض بمعارض للكتب. واستمر الامر الى ان تاسست (الدار الوطنية للكتاب) التي الحقت بوزارة الاعلام،لتبدا صفحة جديدة في تاريخ الكتاب في العراق،صفحة اقل ما يقال عنها انها سوداء.

أنا من بدّل بالكتب الصحابا لم أجد لي وافياً إلا الكتابا
أحمـد شوقي

هذه رواية مزلزلة، في ما تحتويه من افكار وما تعرضه من مشاهد.

ولسوف يخرج قارؤها (كما خرج مترجمها) مبلبل البال، محيراً، مستمتعاً، مستهجناً... وحين يطوي صفحتها الأخيرة سيجد نفسه أمام السؤال الحتمي، وبعدُ؟ في الرواية صراع (وهل تكون رواية بغيره؟) بين معسكرين، قوتين، وقد يتبادر الى الذهن أن الكاتب يمثل (أو يتبنى) أحد طرفي الصراع. ولكن مهارة "بارغاس يوسا" – أو إحدى مهاراته – تكمن في أسلوب الطرح الذي ينتهجه. إنك ما إن تنحاز الى جانب، بفعل قوة الحجة او دلالة التصرف او التعاطف الوجداني، حتى ينتشلك الكاتب، بفعل العوامل عينها، ليحطك في صف الجانب الآخر. وقد يتساءل متسائل يسعى إلى تبسيط الأمور: هل تحاول الرواية المواءمة بين الثورية الفوضوية (في أواخر القرن التاسع عشر) والتعصب الديني المنطوي، في جانب منه، على رفض الظلم؟ هل المواءمة جادة ام ساخرة؟ إن في الرواية عشرات القرائن على هذا ونقيضه في آن واحد.

هل يلتقي الحب والمجد، في رواية ملحمية أو في الواقع والحلم معاً؟ هل يستحق الحب أن ترمي امرأة نفسها في أرض المخاطر المجهولة في آخر العالم؟ هل تستطيع امرأة وحيدة فريدة أن تحطم القيود الاجتماعية في القرن السادس عشر أو القرن الحادي والعشرين؟

أنتجت مادة هذا الكتاب في خضم صراع ممتد مع أفكار شائعة وقوية لكتاب ومفكرين وشيوخ نساءً ورجالاً قاوموا – وما يزالون – العملية التاريخية الموضوعية لتحرير المرأة، التي بدأت في نهاية القرن التاسع عشر وما تزال جارية، مستهدفة الوصول بالمرأة الى وضع المواطن الكامل وتحريرها من الاستغلال.

ولم يكن هؤلاء تعبيراً عن أنفسهم فقط، بل غالباً عن قوى اجتماعية وسياسية فعالة لها مشروعاتها وبرامجها. وتكتسب هذه القوى شرعية متزايدة وإضافية، لكونها تكسب الى صف افكارها ملايين النساء اللاتي يندفعن بوعي أو بدون وعي إلى ارتداء الحجاب، الذي يتجاوز في هذه الحالة كونه زياً بين أزياء، وليصبح (شاءت النساء ام أبين) رمزاً سياسيا متحركاً لهذه القوى.

أسئلة متنوعة ومتباينة ألحت عليّ وراودتني بل أغرتني بالسير في مساربها وطرقها، حين بدأت هذا البحث في الذاكرة التاريخية لحضارتنا العربية الاسلامية حول اشكالية معقدة من تلك الاشكاليات ممتدة الحضور في المشاهد الحضارية المتنوعة، والتي لا تلبث تتوارى حتى تظهر من جديد في صياغة طازجة متوهجة تخايلنا وتربكنا بطرح اسئلة جديدة، وتراوغنا بما لم نتصوره من مشاهد مدهشة، بل تباغتنا بما لم نتوقعه او ننتظره من ممارسات وعلاقات وتحالفات وتحايلات عجائبية وخارقة للمألوف.. الخ!

انها اشكالية مأزق المثقف ما بين سندان السلطة ومطرقة العامة، اشكالية قديمة حديثة، تقليدية متجددة دوماً، لم تزل تطرح نفسها، وتعلن عن حضورها المثير المدهش في واقعنا المعاصر.

يذهب الحكيم وتبقى كتبه، ويذهب العقل ويبقى أثره.
الجاحظ

تعتمد المقالات التي يتضمنها هذا الكتاب على تحليل وتعريف نماذج للأفلام الأميركية على امتداد قرن من الزمن. وقد اخترنا لهذه الغاية الأفلام المدرجة على قائمة معهد الأفلام الأميركي لأفضل مئة (١٠٠) فيلم أميركي في القرن العشرين. وتضم هذه القائمة عددا كبيرا من كلاسيكيات السينما الأميركية، وكذلك أشهر ما قدمته هوليوود من أفلام عبر تاريخها الطويل.

وتتضمن هذه المقالات سردا للمعلومات الأساسية المتعلقة بهذه الأفلام كأسماء ممثليها الرئيسيين ومخرجيها بالإضافة إلى كتابها وبعض الفنيين المشاركين فيها، في كثير من الأحيان، وملخصا لقصصها وتقويما لأهم ما يميزها، وأهم الجوائز السينمائية التي حصلت عليها، وتكاليف إنتاجها وشعبيتها الجماهيرية كما تنعكس في إيراداتها على شباك التذاكر، والظروف والمفارقات المحيطة بإنتاج بعض هذه الأفلام.

أمضيت زمناً طويلا في الأهوار في الخمسينيات، ثم بعد غياب دام عشرين عاماً تقريباً، ومنذ عام (١٩٧٣) رجعت الى هناك مرات عديدة متنقلاً، كما كنت من قبل، بالزوارق ومقيماً مع سكان الاهوار بالضبط كما يعيشون. لذا فالكتاب هو كتاب شخصي بالدرجة الاولى واعتبره نوعاً من التخليد لاصدقائي عرب الاهوار. أنا لست عالماً متخصصاً أو مؤرخا أو أنتروبولوجياً او مختصاً بعلم الطيور أو أي علم آخر، ولكن توجد هنا فصول في التاريخ تتجاوز معركة البريطانيين والأتراك وظهور الإسلام وغزوات اليونانيين والفرس والمنغول والميديين والآشوريين وغيرهم، إلى الأزمنة السومرية العريقة، بل حتى بداية الخليقة.

وكتابي هذا محاولة لوصف ما حدث في السنوات الأخيرة؛ كيف أثّرت التغيرات في العراق على عرب الأهوار، الذين يقطنون أجمل المناطق، على الصعيدين الجماعي وفي غالب الأحيان الفردي.

بصرف النظر عن الأدب وعلم اللاهوت، فإن قلة يمكنهم الشك بأن الميزة الرئيسية لكوننا هي افتقاره للمعنى. والهدف الواضح. غير أننا، وبتفاؤل محير، ماضون في حشد كل قصاصة ورق من المعلومات التي يمكننا جمعها في لفائف وكتب وأقراص كومبيوتر، في رف بعد رف من المكتبة، سواء كانت مادية، وهمية، أو غير ذلك، وعلى نحو مثير للشفقة، بهدف إضفاء شكل من الإحساس والنظام على العالم، بينما نحن نعي جيداً، مهما أردنا أن نصدق العكس، بأن مسعانا للأسف مآله الفشل.

بما أن اهتمامنا بالسرد الدقيق للتواريخ والأسماء أقل من ولعنا اللامحدود بالتجميع، فقد قررت أن أبدأ بالكتابة، لا كي أصنف تاريخا آخر للمكتبات، أو أضيف مجلدا آخر للمجموعة الواسعة بشكل مرعب في علم المكتبات، بل كي أسجل فقط وقائع دهشتي.

كانت المكتبات، مكتبتي الخاصة أو تلك العامة التي أشارك فيها جموع القراء، تبدو لي دائما أمكنة مجنونة على نحو ممتع، وبقدر ما تسعفني الذاكرة كنت مفتوناً بمنطقها الشائك، الذي يفيد بأن العقل (إن لم يكن الفن) يحكم الترتيب المتنافر للكتب.

يا قصائدي المثقلات
اعرف أنك متعبة من بضائع
مؤسفة.
هو هذا الطريق وذلك ما كان
فاحتملي العباء ومرّي ببطء
أظن المحطة باتت على وشكٍ،
وأظنك حُمّلتِ أكثر مما
استطعت
ولكنها هي هذي حياتيَ
وهذا أنا لأعيش !

قيل لأرسطو: كيف تحكم على إنسان؟ فأجاب: أسأله كم كتاباً يقرأ وماذا يقرأ
أرسطو

لغة العرب

مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية

الجزء ٩ من السنة ٢ عن ربيع الثاني سنة ١٣٣١ — آذار ١٩١٣

✻ صرعى الكتب والمكتبات في العراق ✻

Bibliomanes et Bibliophiles de Mésopotamie.

لا يعرف على التحقيق الزمن الأوّل الذي دوّنت الكتب فيه واقتناها الناس على هذه الصورة اوما يشبهها حسب اختلاف العصور غير انا نعلم انه قد قارَن عهد وجود الكتب وجودُ اناسٍ فتنوا بها وسحرتهم فبالغوا في جمعها وفي الضنة بها وقد تأنقوا في نسخها ووراقتها وتجليدها وتنضيدها وتحليتها بما لامزيد فوقه. وربما كان بعض جماعة الكتب من غير قرّائها ولا من المدبرين لها ولكنه اولعَ بها فوجد مع جهله لذّة في اقتنائها وارتياحاً الى الازديادِ منها وطيب نفسٍ لا للاستفادة ولكن لمجرّد انفتاحها وانطباقها واللهو بها كما كان يفعل احد جماعة الكتب من الفرس في النجف على عهد غير بعيد وقد كانت اليد الطولى للفرس في بث روح المغالاة بالكتب بين اهل العراق وذلك على عهد هبوطهم هذه الديار وانتيابهم اياها لطلب العلم او للجوار وفيهم اولاد العلماء والملوك واهل الجاه والثروة فحملوا الينا خزائن الكتب من بلادهم غير ماجمعوه بعد تمكنهم في

والفلك والرياضيات والشعر والتاريخ والعربية وكان اذا اقتنى كتاباً كتب عليه بخطٍ بديع «للحقير محمد الباقر» وخط معروف يشار اليه عند الصحفيين وفي اسواق الكتب ومعارضها ولما عرضت كتبه للبيع سنة ١٣٢٩ وكان فيها اكثر من الف مجلد مخطوط نودي عليها عدة اسابيع وكنت ممن يحضر المناداة فشاهدت فيها شاهدت مايدهش المتأمل من آثارٍ نادرة في بابها ونفائس مخطوطات قليلة الوقوع حتى في امهات بيوت الكتب الكبيرة في العالم وذلك مثل كتاب «مشارق الانوار» للقاضي عياض الذي كان يظن انه اصبح اثراً بعدعين وكتاب «العين» للخليل الفراهيدي وكتاب «طبقات القرآء» وشرح «تذكرة الطوسي» في الفلك للخفري وشرحها ايضاً للسيد الشريف وقد ملكتهاو«القول المأنوس» وهووجيز حاشيةٍ على القاموس وغير ذلك من شواذّ الاسفار الكبيرة التي لم تمثل بعد للطبع كجمهض مؤلفات الثعالبي المعروف ووقفت ايضاً بين كتبه على كتاب «وَفيات الاعيان» بخط مؤلفه قاضي القضاة ابن خلكان هذا عدا مالا اقدر ان آتي عليه في هذه العجالة وبالجملة ذهبت كتبه بثمن بخس وبيعت بصفقة خاسرة. ولو نودي على هذه الكتب في اسواق الغرب لذهبت بزنتها ذهباً على ان مبتاعها غير مغبون.

ومن عرف في النجف من الغلاة في اقتناء الكتب العالم المحدّث الكبير الشيخ «ميرزا حسين النوري» الطهراني المتوفى قبل اثنتي عشرة سنة تقريباً فقد كان متعلقاً بجمع المخطوطات متفانياً في احراز

هذه البلاد وغير ماحملَ اليها من بلاد الهند وغيرها. هذا غير ما كان لايران من الفضل في طبع الكتب التي لاتقع تحت حصر من علمية على تشعب فنون العلم ودينية على اختلاف فروع الدين وكلها تحمل الى العراق اوالى النجف حيث اطمأن العلم والعلماء وشيدت المدارس وانشئت بيوت الكتب الكبيرة فاقدم اذ ذاك عامةُ الناس على ابتياعها وكان قد نبغ اثناء ذلك قوم معروفون أُولِعوا بجمع الكتب وشغفوا بحبها وبينهم فريق من ابناء الملوك والعلماء وذوو الاسر والبيوت الاصلة. وآخرون من الدهماء خلقوا لنصرعهم الكتب فعكفوا على نشدانها وطلبها من مظانها فتيسرَ لهم جمع ماليس باليسير منها ومن هؤلاء من ادركناهم في زماننا هذا كالشيخ «الملا باقر التستري» المتوفى في النجف سنة ١٣٢٩ فانه كان مفتوناً بجمع الكتب فتنةً قلَّ ان تعهد في غيره. وكان اذا قدّم الى «معرض الكتب» في النجف كتاب مخطوط بذل النفس والنفيس في سبيله على قلة ذات يدهِ وربما تملق لمن ينافسه في الكتاب تملقاً لامزيد عليه حين «المناداة» على بيعه وقد يقبل المنافسَ ويتعلق به ليتركَ لهُ طلبتهُ. قال بعضهم نافسته يوماً في كتابٍ و«المنادي» ينادي عليه فسألني تركه فما كان منه الاَّ ان امسكني بيده قائلاً وقد تغيرَ: اما تخشى الله؟ وله نوادر جمة في باب اقتناء الكتب وقد جاور زماناً بمكة واتصل بالشريف هناك واقتنى قسماً من كتبه المخطوطة فيها. وله الى ايران رحلات كان اهمّ مايحمله عليها جمع الاثار ولقد حصل باجتهاده على امهات الكتب النفيسة القديمة على اختلاف موضوعاتها وقد شاهدنا بينها كتب الدين والفلسفة

نفائس الآثار وله نوادر غريبة في هذا السبيل تدل على شديد افتتانه وعظيم بلائه بها منها انه وجد يوماً في سوق من اسواق كربلاء كتاباً كان ينشده عند امرأةٍ فاستباعها واستامها عليه فارضاها ويظهر انه كان ذاهلاً لعثوره نبهاً على ضالته فانه لما اراد ايفاءها ثمن الكتاب لم يجد عنده شيئاً ولكنه بادرَ فخلع حلةً ثمينةً كانت على متنهِ وباعها في سوقٍ كاسدةٍ بثمنٍ تافهٍ يسير واخذ الكتاب من صاحبته بهذه اللجاجة الغريبة وبالجملة كانت خزانة كتبه من احفل خزائن الكتب الكبيرة ويحكى انه كان في جملة مخطوطاتها الف مجلد عليها خطوط مؤلفيها وهذا مما لم يتفق حتى في خزائن كتب الملوك في القرون الاخيرة فانا نعرف اميراً من امراء الهند لم يجمع غير سبعمائة مجلد عليها خطوط المؤلفين وقد كان رحمه الله مصلحاً سالكاً سبيل السلف الصالح وعالماً مؤلفاً حريصاً على نشر العلم ولذلك لم يوصد باب خزانته في وجوه الطلاب ولم يمتنع ان يعير كتبه من يستفيد بها من الناس كما يفعل كثير من كنز الكتب وقبض عليها قبضة الشحيح وخصوصاً العامة من جماعتها فانهم لم يذوقوا لذة العلم ولا حلموا بالمعرفة ليهون عليهم بذل اسفارهم في سبيلها وعلى العكس من ذلك رجل صرعته الكتب وهو قد رضع افاويق العلم وخلصت نيته في نشرهِ فانا كثيراً ماسمعنا عن السلف الصلحاء انهم حبسوا كتبهم حبساً عاماً على من ينتفع بها من الناس

ويؤثر عن بعضهم قوله:

ان زكاة الكتاب عاريته

ويوجد اليوم في النجف من العلماء المطبوعين على حب الكتب

الكتب ينبغي أن تؤدي إلى واحدة من هذه الغايات الأربع: إلى الحكمة أو التقوى أو المتعة أو الفائدة

جون دنهام

صرعى الكتب والمكتبات في العراق

وتفقد الاثار الجامعين لها جماعة منهم الشيخ الفاضل الرفيم القدر الغريب الصبر والثبات ﴿ الشيخ علي ﴾ من آل كاشف الغطاء وهو الرجل الذي لايرى الاّ مجداً في النسخ والتاليف اوعاكفاً على المطالعة اولهجاً بجمع الكتب وذكرهايقص عليك احاديثها ويصف لك مظانّ وجودها ويترجم لك احوال صرعاها وجماعتها وقد كانت نفسه الكبيرة حملته على الرحلة فجاب بلاد الفرس وبلاد الترك وبلاد مصر وسوريا والحجاز ولم تكن رحلته هذه رحلة تسلية وتفكهة لابل كانت اشبه برحلات متتبعي العلم والرواية من السلف الصالح فانه كان اذا حط رحلهُ في بلد وجه همه الى زيارة معاهده العلمية والوقوف على دور كتبه المهمة هكذا كان في مصر والشام والاستانة وقد اتقن في هذه العاصمة اللغة التركية فشافه كبار ساستها وعلمائها ولم يبق فيها بيتاً من بيوت الكتب الاّ زاره واستفاد منه وكان اذا اعجبه كتاب لم يكبر عليه نسخه واكتتابه وان كبر كما فعل يوم كان في الاستانة فانه انتسخ فيها لنفسه بنفسه اسفاراً جمة منها كتاب ﴿ شرح ابي تمام على مهاجاة جرير والاخطل ﴾ وقد وجده منتسخاً بالخط المغربي القديم وهو خط معمى يجهل المشارقة تهجئته فمكف اياماً على تفهمه ومحاكاته بقلمه حتى اتقنه فلم يصعب عليه بعد ذلك انتساخ الكتاب ونسخ ايضاً ديواني ﴿ مهيار ﴾ و ﴿ كشاجم ﴾ ولم يكونا يومئذٍ مطبوعين وبفضله طبع الاخير على نسخته التي انتسخها لنفسه وهمته في الصبر على الكتابة مشهودة حتى انه تناول كتاب ﴿ امالي القالي ﴾ قبل طبعه وعكف على نسخه في عدة اسابيع وكان الوبآء منتشراً حيث اقام فاعاقه ذلك عن مقصده

ومانسخه لنفسه كتاب ﴿ نسمة السحر في من تشيع وشعر ﴾ وهو كتاب نادر الوجود قل من سمع به ونسخ كتاب ﴿ رسائل ابن العميد ﴾ الكاتب المعروف وهو يقع في مجلد ضخم ونسخ غير مارأيت بهمة غريبة وجد متواصل حتى انه لواقتصر على ماورّقه بيده لحصل على خزانة كتب حافلة لكنه لم يقتصر على ذلك واخذ يتطلب الكتب النادرة ويبتاعها وساعده على نجاح قصده تجواله في البلاد فاشترى من الاستانة وغيرها من البلاد التي عرج عليها كتباً نفيسة مخطوطة ومطبوعة فاجتمعت له خزانة كتب لاتزال من امهات خزائن الكتب العربية وفيها المخطوطات الكثيرة في كثير من الفنون وبعض نسخها قل ان يعرف لها ثانٍ مثل ديوان الشاعر المشهور ﴿ الحسين بن الحجاج ﴾ العراقي صاحب الدعابة والمجون ومثل كتاب (الطراز) في اللغة للسيد علي خان الاديب المعروف صاحب سلافة العصر وانوار الربيع وديوان (مهيار) الديلمي تاماً او قريباً من التمام وديوان السيد الشريف المرتضى وعشرات من اسفار العلم والادب الشاذة سلف ذكر بعضها ثم انه لم يقف عند جمع الكتب والتقاط آثارها او انتساخها بقلمه فعكف على الكتابة في الادب والتاليف فيه وقد نجز إلى الان من مؤلفاته كتاب (فصل الخطاب في الكتابة والكتاب) مخطوطاً في مجلدين ضخمين وهو كتاب جامع لم يسبق مؤلف الى افراغه بهذا القالب البديع وقد استعان على تأليفه بما وفق لجمعه ونسخه من الكتب وبما حدث على عهده اوما قبله بقليل مما يدخل في موضوع كتابه وقد ملحه بشذرات من الكتب العلمية الحديثة فجاء كتاباً ممتعاً جامعاً لفنون المعاني حافلاً بضروب المقاصد وقد استمالني منه فصل معجب جآء

المؤلف فيه على وصف دور الكتب التي وقف عليها اوانتهى اليه وصفها سوآء كانت في بلاد العراق بلاده اوفي غيرها من البلاد التي جابها في رحلته وقد كان بودنا ان ننقل هذا الفصل عن هذا الكتاب لو كان مناسبته لموضوع المقالة لولا انّ ضيق نطاق الوقت حال دون ذلك ونحن اذا عدت الفرصة فاعلون. ومن مؤلفات هذا الشيخ الكبيرة التي وقف لها حياته كتاب (طبقات الشيعة) على اختلاف العصور وعلى تباين الاحوال فمن طبقات رواتهم ومحدثيهم وحملة اخبارهم الى طبقات علمائهم وكتابهم وشعرائهم وطبقات ملوكهم ووزرائهم وامرآئهم وقد نجز الى الآن قسم كبير منه يقع في عدة مجلدات وهو دائب السعي ورآء اتمامه متصل الاجتهاد في سبيل انجازه واذا تم كان اكبر خدمة لهذه الطائفة الاسلامية العظيمة الشان التي قلما انصرف رجالها وخصوصاً المتأخرين منهم الى وجوه التاريخ وتدوين آثار اسلافهم ومعاصريهم انصراف اهل السنة من اخوانهم المتقدمين والمتأخرين وبالجملة ان حياة هذا الرجل حياة جدٍّ وعمل متصلين ونعمت الحياة. ومن صرعى الكتب في النجف اليوم الشيخ (محمد علي الخونساري) فانه مبالغ في اقتناء الكتب وخصوصاً النادر منها وقد جمع عدداً غير يسير منها ومن مخطوطاته قسم كبير في الفلسفة القديمة ومنهم السيد (محمد) اليزدي فان لديه خزانة كتب خطيرة حوت كثيراً من الامهات مثل كتاب (غريب ابي عبيدة) مخطوطاً في القرن الخامس على ما اظن وكتاب (المجمل) في اللغة لابن فارس وغيرها كثير.

ومن عشاق الكتب في العراق وجماعيها السيد ﴿ حسن صدر الدين

العاملي ﴾ العالم المعروف في الكاظمية فقد انشأ له طلبه الخثيث لها خزانة كتب مهمة بينها قسم كبير من الآثار النادرة ككتاب ﴿ العين ﴾ وكتاب ﴿ الجمهرة ﴾ لابن دريد فيها وكتاب ﴿ طبقات القرآء ﴾ ولا نعرف لمن هو فقد الف جماعة من العلماء في هذا الباب وفيها غير ذلك من نفائس المخطوطات والرجل ممن اشتهر بالتآليف وقد نجز إلى الآن على يده كتاب ﴿ تاسيس الشيعة ﴾ وهو كتاب تاريخي ادبي جم الفائدة بعثت صاحبه الغيرة على الطائفة فالف كتاباً دل به على سبقها الفرق الاسلامية في التآليف وانبعاثها قبلها الى تأسيس العلوم والفنون ولا يزال كتابه هذا مخطوطاً وبسعي مؤلفه طبع كتاب ﴿ المجازات النبوية ﴾ للسيد الرضي في بغداد سنة ١٣٢٩ وللسيد هذا غير ذلك الكتاب مؤلفات في الموضوعات الدينية والتاريخية ويوجد اليوم في هذه البلاد رجال آخرون من صرعى الكتب لم نذكرهم لضيق المجال

النجف — محمد رضا الشبيبي

صرعى الكتب والمكتبات في العراق..
نص نادر للشيخ الشبيبي عام ١٩١٣

إقرأ كتاباً للمرة الأولى تتعرف إلى صديق، إقرأه مرة ثانية تُصادف صديقاً قديماً
حكمة صينية

وخيرُ جليس في الزمان كتابُ

مكتبتي

عبد الحميد الرشودي

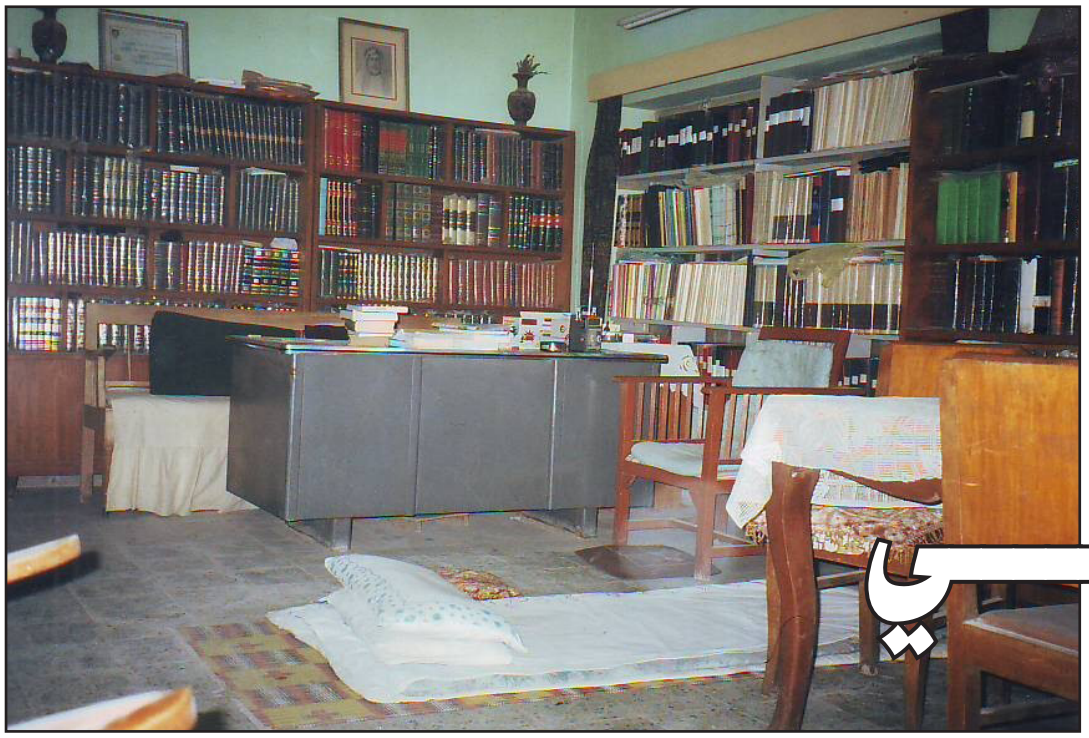

مكتبة الرشودي في داره وقد مد بوسطها فراش نومه

لم أكن غريباً عن الكتاب ولم يكن الكتاب عني غريباً، فقد فتحت عيني – حين فتحتها – على خزانة كتب كان والدي – رحمه الله – قد اقتناها وهي تتكون من عدة رفوف لها بوابة ذات مصراعين وكثيراً ما كنت افتح بوابتها وأجيل الطرف في رفوفها مبهورا، وحين كنت أرى والدي وقد جلس أرضاً تحت المصباح النفطي وقد اسند ظهره الى الجدار واستغرق في القراءة اتمنى أن يأتي اليوم الذي اكون فيه قادراً على قراءة هذه الكتب والانتفاع بما فيها من العلوم والمعارف وشد ما سروري يزداد حين يكلفني والدي باعادة كتاب الى الخزانة او جلب غيره بعد ان يصفه لي وصفاً كاملاً (جلده كذا وحجمه كذا) فاعود اليه بالكتاب المطلوب، وقد ملأ السرور جوانحي وطفح البشر على قسماتي.

وحين انتقل الوالد الى رحمة الله اضطرت العائلة تحت وطأة الحاجة ان تبيع شطرا من هذه المكتبة وخاصة كتب الفقه والتفسير والحديث والعقائد وقد استخلصت لنفسي الكتب النحوية والادبية والبلاغية والتي اصبحت بعد ذلك نواة فما ضننت به من تلك الكتب شروح الفية ابن مالك الاشموني والخضري والمكودي بطبعاتها الاولى ذات الورق الاصفر وكذلك من الكتب الادبية التي احتفظت بها معاهد التنصيص للعباسي والطراز في البلاغة للعلوي اليماني وديوان المتنبي بشرح البرقوقي في طبعته الاولى عام ١٩٣٢ ومن الكتب التاريخية ثلاثة اجزاء من تأريخ ابن خلدون وجزء يضم تعليقات الامير شكيب ارسلان عليه ومن كتب التفسير احتفظت بالكشاف للزمخشري ومن الحديث باجزاء من صحيح البخاري وغيرها من الكتب التي تلائم هوايتي وهي تمثل الجانب الطارف منها – فقد بدأت عام ١٩٤٣ عندما دخلت مدرسة متوسطة الكرخ فقد لمحت ذات يوم بيد احد زملائنا ديوانا ضخما فطلبته منه وتصفحته فاذا به ديوان الرصافي (طبعة بيروت عام ١٩٣١) فسألته متعجبا من اين لك هذا (يا عبد الغني) فقال انه يعود لاخيه الاكبر وانه اشتراه من سوق السراي فازمعت امري وصممت على اقتناء نسخة منه وقد وجدتني ذات يوم ادخل سوق السراي وفي جيبي دينار واحد فما كنت اخطو عدة خطوات حتى وقفت امام مكتبة تحمل اسم (الإصلاح) لصاحبها صادق الشكرجي وكان رحمه الله بدينا انيقا يبدو لرائيه وهو ببذلته البيضاء وحمائل سرواله وربطة عنقه الحمراء، وكأنه طبيب جراح او صيدلي فجمعت شتات شجاعتي وسألته هل عندكم ديوان الرصافي؟ فأجاب نعم ثم التفت الى احد الرفوف وقدم لي نسخة مجلدة تجليدا افرنجيا ومذهبة فسألته عن ثمنها فقال لي (٨٠٠) فلس فنقدته الدينار وأعاد لي ريالا (وحدة نقدية تساوي ٢٠٠ فلس) ولاتسل عن سروري الغامر حين ظفرت بهذا الديوان فاتخذته محرابا اتعبد بتلاوة قصائده حتى استظهرت اكثرها وازداد اعجابي بالرصافي وبروحه الوطنية ومشاعره الانسانية ولعل سر ولوعي بادب الرصافي واهتمامي بآثاره واخباره يعود الى هذا الديوان فأنا واياه كما قال الشاعر:

اتاني هواها قبل ان اعرف الهوى
فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وقد علمت بعد ان اخذت اتردد على سوق السراي، واطلعت على دخائله ان (صادق الشكرجي) كان مختصا ببيع القرطاسية وانه نادرا ما يتجر بالكتب ولكنها المصادفة التي ساقت هذا الفتى الساذج فأوقفته عند حانوت هذا الرجل فلم يخب مأموله فحصل على بغيته وطلبته بلمح البصر وعاد الى داره فرحا جذلا وكأنه عثر على كنز من كنوز سليمان..

كان باعة الكتب انماطا اعاجيب منهم السهل السمح ومنهم المماكس المغالي ومن الذين اذكرهم بخير ولمست فيهم مروءة وسماحة المرحوم نعمان الاعظمي (صاحب المكتبة العربية) فقد اتيته يوما لشراء كتاب (العقد المفصل) للسيد حيدر الحلي فسألته عن ثمنه فقال لي (٣٠٠) فلس وبما انك طالب ادب فتشجيعاً لك هات ربع دينار فأخذته شاكرا له هذه الاريحية..

ومن اولئك الكتبيين الذين تركوا اثرا طيبا في نفسي المرحوم قاسم محمد الرجب صاحب مكتبة المثنى فما اشتريت منه كتابا الا واجرى عليه خصما مناسبا ولم اكن اعرف يومئذ هذا الاسلوب في البيع. وان انسى لا انسى المرحوم محمود حلمي صاحب المكتبة العصرية فقد وجدت فيه طيبة وسماحة وقد ادركته في سنيه الاخيرة.

لقد اصبح سوق السراي نزهتي المفضلة الم به كلما توفر لدى شيء من النقود فقد كانت الكتب يومئذ زهيدة الاثمان واذكر اني اشتريت كتاب (صندوق الدنيا) لابراهيم عبد القادر المازني باربعين فلسا وكانت المجلات القديمة وخاصة مجلة الرسالة والرواية والثقافة مطروحة ارضا وقد وقف عليها من ينادي باعلى صوته العدد بعشرة فلوس فاستطعت ان اقتني منها اعدادا وفيرة هي اليوم قرة عيني وبهجة قلبي.

وانكر ان مجلدات من الجرائد العراقية القديمة قد طرحت للبيع عن طريق المزايدة وقد علمت انها تعود للمربي الاستاذ ساطع الحصري بعد ان اسقطت عنه الجنسية العراقية وقد ظلت ايدي الباعة تتعاور صحفه وكتبه مدة طويلة تارة عن طريق المزايدة واخرى عن طريق المساومة.

وقد ازدادت خبرتي بسوق الكتب وباعتها فلم يعد سوق السراي يشبع رغباتي فقد عثرت ذات يوم على قائمة كتب للمكتبة العربية في القاهرة وفيها تعليمات لمن يرغب في اقتناء كتبها بالاسعار المدونة ازاءها على ان ترسل اثمانها سلفا مع قائمة الطلب فزينت لي سذاجتي ان احول بعض الدنانير العراقية الى جنيهات مصرية فوضعتها داخل رسالة مع قائمة باسماء الكتب التي طلبتها وارسلتها بالبريد العادي وشد ما كان عجبي حين جاء ساعي البريد (عباس) الموزع الوحيد في الكرخ وهو يحمل رزمة من الكتب ومعها رسالة بالحساب وقد بقي في ذمتي شيء من الحساب فأبردت له شاكرا صدقه وامانته وارسلت اليه المبلغ المطلوب مع قائمة جديدة بكتب اخترتها واني ما زلت احتفظ برسائل هذا الرجل الشهم محمد احمد برغم مضي اكثر من اربعين عاما عليها اسبغ الله عليه ثوب العافية ان كان في المنتظرين وتغمده برحمته ان كان سبقنا الى لقاء وجه ربه الكريم..

وحين اصبح لي مورد ثابت من المال خصصت شطرا منه لاقتناء الكثير فقد عينت معلما في مدرسة التفيض عام ١٩٥٢ وبذلك ازدادت قدرتي على الشراء..

بدأت اول الامر بجمع كتبي في زاوية ثم ضاقت فاشتريت (دولابا) من سوق الهرج فاختنق بعد مدة من الزمن فخصصت لها غرفة صغيرة من غرف الدار ثم ضاقت كما ضاق قبلها (الدولاب) ومن رأيي في المكتبة والانتفاع بها يجب ان تكون في متناول طالبها فاذا كدست ونضد بعضها فوق بعض فقد صارت مخزنا وعندئذ يتعذر الانتفاع بها لذا رأيت ان اركنها في رفوف متوازية بحيث تكون جميعها تحت نظري وفي متناول يدي

فان من عادتي اذا قرأت كتابا وخامرني شك في نص من نصوصه ان ارجع الى مظانه لأقارن بين ما اورده المؤلف وماهو مدون في المصدر المنقولة منه تلك النصوص وكثيرا ما كنت اقف على فروق واختلافات مما وقر في نفسي ان اكثر المؤلفين تعوزهم الدقة واحيانا الامانة او ان بعضهم يرجعون الى مصادر ثانوية ويوهمون القارئ بأنهم استقوا من الاماكن الاصلية وذلك بسبب الكسل او التسرع وايثار الميسور على المعسور..

ومن الوفاء ان نذكر للدار الوطنية في العراق فضلها السابغ على الثقافة فقد درجت على دعم الكتاب طباعة ونشرا وتوزيعا وان معارضها التي اقامتها قبل سنتين فنازلا – ولا اقول فصاعدا – قد ساعدت كثيرا من هواة الكتب على تكوين مكتبات عامرة بيسر وسهولة واسعار معتدلة..

ان الكتاب مثله مثل الكائن الحي يعتريه من اسباب المرض والعطب ما يعتري الانسان. فالارضة هذه الدابة الرهيبة الفتاكة – على ضعفها وصغر حجمها –عدو مبين لم ينج منها حتى منسأة سيدنا سليمان فاذا اخذت طريقها الى المكتبة فاقرأ على كتبها سورة الفاتحة. وكذلك المستعير الذي يلتوي بالكتاب حين يطلبه ولايعيده الى صاحبه ويعتذر باعذار باردة واهية مما جعل بعض اصحاب الكتب يضنون بكتبهم ولايعيرونها خشية ضياعها وقد رأيت بعض اصحاب المكتبات الخاصة قد كتب على كل كتاب من كتبه المهمة هذين البيتين:

اذا استعرت كتابي وانتفعت به
احذر وقيت الردى من ان تؤخره
واردده لي سالما اني شغفت به
لولا مخافة كتم العلم لم تره

وبرغم انني اكتويت بنار الاستعارة وفقدت مني كتب نفيسة فاني لا اشايع الرأي القائل: ان الغبي من يعير كتابا والاغبى منه من يعيده.

ففي هذا قطع لسبيل الاحسان فكل كتاب تستطيع ان تصل اليه يدك فتقتنيه بل من الكتب ماهو نادر مفقود لذا فاني مع الرأي القائل بأن "زكاة الكتاب اعارته" على ان يعرف المزكي من
يستحق الزكاة: فيشكرها ولايكفرها..

ان مكتبتي على صغرها وبساطتها – هي واحتي في صحراء الحياة أوي الى ظلالها الوارفة وقطوفها الدانية وجدولها العذب النمير كلما امضني لهيب الهاجرة أو حزبني امر من امور هذه الدنيا – وما اكثرها – فاجد فيها روحا وريحانا ثم استغرق بين سطورها في حلم صوفي سعيد لايوقظني منه الا عندما اجد النعاس قد عقد اجفاني واخذ رأسي يهوم واحيانا يسقط الكتاب من يدي من شدة الاعياء ولله در الشاعر الذي وصف الكتاب بهذا الوصف الذي جمع فأوعى وهو مما انشده ابن الاعرابي (معجم الادباء ٨/٧)

لنا جلساء ما نمل حديثهم
الباء مأمون غيبا ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم من مضى
وعقلاً وتأديباً ورأياً مسددا
فلا فتنة نخشى ولاسوء عشرة
ولا نتقي منهم لسانا ولا يدا
فإن قلت: اموات فما انت كاذب
وإن قلت احياء فلست مفندا

أعز مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الأنام كتاب أبو الطيب المتنبي

معرض أربيل السابع للكتاب يشهد طفرة في عدد دور النشر ويوسع دائرة القراء

نظمت مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون بالتعاون مع وزارة الثقافة والشباب في إقليم كردستان صباح ١- ٤ – ٢٠١٢ في مدينة أربيل عاصمة إقليم كردستان العراق مؤتمرا صحفيا للإعلان عن إطلاق معرض أربيل الدولي للكتاب السابع برعاية السيد مسعود بارزاني اليوم الاثنين المصادف ٢-٤ – ٢٠١٢. والمعرض شكل تظاهرة ثقافية وحضارية في الحياة الثقافية العراقية، وما كان بالإمكان الوصول بالمؤتمر إلى نسخته السابعة لولا النجاحات التي تحققت في دوراته السابقة وأضاف القيسي " إن نجاح المعرض ارتبط أيضا بتواصل الجمهور معه وفي حالة فريدة في إحدى دوراته كان عدد الزوار في اليوم الأول قد بلغ ٥٠ ألف زائر وهو على ما اعتقد رقم يؤكد التفاعل بين المعرض وشريحة واسعة من الجمهور.

قالت مدير عام مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون الدكتورة غادة العاملي " تفتتح غدا (اليوم) الدورة السابعة لمعرض أربيل الدولي للكتاب ، وقد حققنا تقدما كبيرا في مختلف الجوانب التي تمهد للنجاح الأهم ، أي تحقيق طفرة بالنسبة لتداول الكتاب وتوسيع دائرة القراء وتعزيز أواصر العلاقة بين دور النشر العربية والعراقية ، وان المعرض يشهد هذا العام طفرة في عدد دور النشر المشاركة قياسا بالسنوات الماضية، وأيضا عدد الدول المشاركة في هذا المعرض ، يعود نجاح المعرض إلى احتضان رئاسة الإقليم وحكومته وتقديم الدعم المادي والمعنوي لانجاز مهامه بالمستوى المطلوب ، فحكومة الإقليم تقدم ارض المعرض دون مقابل ، مما ييسر على دور النشر المشاركة الفعالة من جانب ، ويقرب القارئ من العناوين التي يريد اقتناءها ، كذلك تدعم حكومة الإقليم المعرض من خلال تخصص ميزانيات كبيرة إلى وزارة التعليم العالي لشراء حاجاتها من الكتب العلمية والثقافية والمعرفية من المعارض ، كما توفر الحكومة ووزارة الداخلية التسهيلات اللازمة لوصول العارضين والقراء إلى المعرض.

وأضافت " إن وزارة الثقافة في الإقليم تقوم بدور هام في إقامة المعرض وتأمين ما تستطيع لإنجاحه عبر كوادر الوزارة وخبراتها ودعمها ، لقد تأكد المعرض في دوراته السابقة من مدى إقبال قراء كردستان على مصادر الثقافة والمعرفة باللغة العربية، وهذا رد على من يريد تشويه صورة كردستان وعلاقة شعبه بالثقافة ومصادر المعرفة باللغة العربية ، ومن الهام التوقف عند التفاعل بين جمهور القراء والمثقفين من مختلف محافظات العراقية والجمهور الثقافي في كردستان من خلال الحضور الكثيف إلى المعرض. إن المعرض يشهد هذه السنة حضور ضيوف كبار من مصر ولبنان وفلسطين وبلدان عربية أخرى ، معروفين بقاماتهم الثقافية البارزة في ميادين الثقافة والفنون والمعرفة ، وهذا يدلل مرة أخرى على النجاح الكبير للمعرض، وتعزيزه للروابط بين المثقفين في العالم العربي وكردستان.

من جانبه قال ازاد دارتاش مسؤول العلاقات في وزارة الثقافة والشباب في الإقليم " إن معرض الكتاب في أربيل يقام كل عام، ويعد من أهم المعارض التي تقام في الدول العربية ودول الجوار، وتنظيم مثل هكذا مهرجانات في إقليم كردستان لأنها سباقة في انطلاق كرنفالات أعراس ثقافية، وإن هذا المعرض للكتاب هو السابع في أربيل، وليس من الغريب على كردستان مثل هذا الانفتاح، وهناك الكثير من النشاطات الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية، وإن هذا المعرض ما هو إلا دليل على هذا الانفتاح " وأضاف " اعتقد أن هذا المعرض سوف يكون مميزا أكثر من سابقاته من ناحية التنظيم وعدد الدور المشتركة وعناوين الكتب المتنوعة " .

وقال مدير المعرض إيهاب عبد الرزاق " إن المعرض يعد من أهم معارض الكتاب في المنطقة والعراق بشكل خاص ، وسوف تكون هذه السنة مميزة وذلك لازدياد عدد الدور المشاركة في المعرض حيث إن أكثر من (٣٥٠) دارا للنشر بين عربية وأجنبية مقسمة على (٢٨٠) جناحا، ووجود أكثر من (٦٠) دار نشر عراقية، بالإضافة لمشاركة (٣٢) دار نشر كردية ، وفيما يتعلق بأهمية المعرض بالنسبة لمؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون فأوضح بأن (المدى) هي الجهة المنظمة للمعرض بالتعاون مع وزارة الثقافة والشباب في الإقليم وهنا أود أن اشكر وزارة الثقافة ووزارة التعليم العالي وزارة الداخلية لتعاونهم معنا. وأود أن أشير انه على هامش المعرض سوف تقام فعاليات متعددة لضيوف المعرض من ندوات وحفل موسيقي ومعرض للتشكيل.

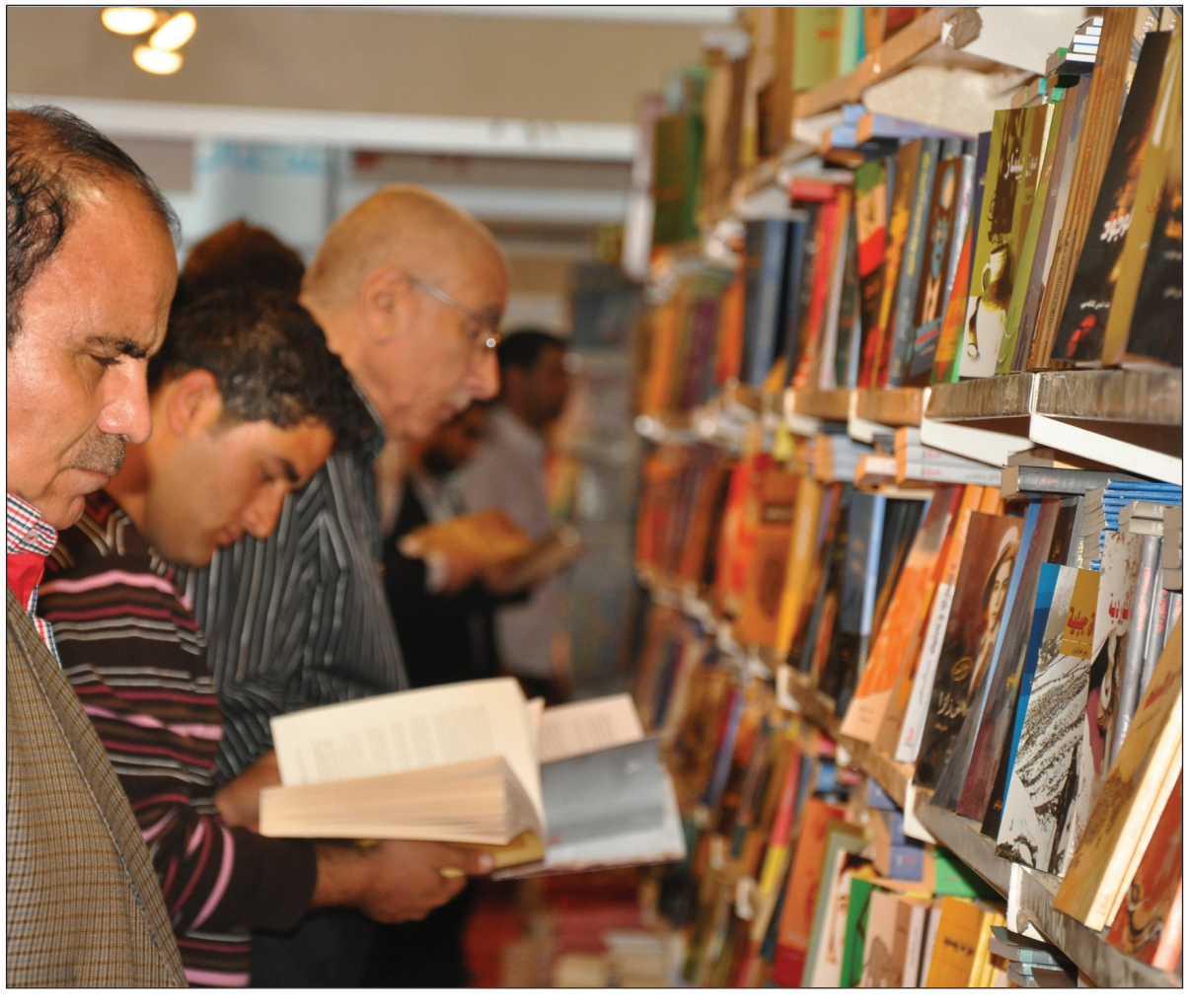

الهوس بالكتب

■ سعد محمد رحيم

يرى المهووسُ بالكتب العالمَ كتاباً مفتوحاً كبيراً لا ينتهي البتة من قراءته. أو كمكتبة عظيمة أشبه ما تكون بالمتاهة عليه أن يتنقل بين ممراتها وصفوف رفوفها وسلالمها وطوابقها بحثاً عن سر الوجود المكنون في مكان ما منها. وقد تكون المكتبة في ذاتها، بنظره، هي صورة العالم ومثاله. أو هو العالم الذي يقترح له (للقارئ) أكثر من حياة؛ فتغدو، حينئذ، حتى الذاكرة في شكل كتاب، والعقل ككتاب، والمجتمع والعلاقات بنى توازي وتناظر هيئة كتاب. فيما العالم نفسه، بالمقابل، سيبدو وكأنه "وجد كي يُصبّ في كتاب جميل" على حد تعبير مالارميه. وكل كتاب مضاف هو حياة جديدة مبذولة لقارئه طالما أنه خلاصة تجربة وخبرات متراكمة ورؤى تكونت في طرقات الزمان. من هنا نميل إلى تلك الكتب التي تخاطب عصباً خاصاً، خفياً، فينا، وتتوافق مع ما عشناه حقاً وخبرناه.. والمغزى بعبارات ألبرتو مانغويل في كتابه (يوميات القراءة) هو في إقامة رابطة من الاتفاق العَرَضي بين مخيلتين، مخيلتنا وتلك المدوّنة على الورق. لا لكي نرضي غرورنا بل من أجل أن نقتنص فرصة تعميق رؤيتنا إلى أنفسنا وعالمنا..

لا أحد كرّس جهده البحثي والأدبي، في عصرنا، للحديث عن الكتب وقراءتها والمكتبات مثلما فعل مانغويل.. كانت الكتب موطنه وفردوسه. ومنذ صغره حلم أن يكون أمين مكتبة، ولم يتحقق له ذلك بسبب كسله وحبه للسفر كما يخبرنا.. وفي صدر شبابه كان يحيط الكتب بنوع من الهالة.. يؤكد: "كنت أريد أن أعيش وسط الكتب".. وذات مرة قادته المصادفة ليكون قارئاً لبورخيس، وتلك تجربة يعدّها غريبة، فبورخيس المستمع كان سيد النص، يحدد الكتاب، ويمنح الدعم، ويطلب الاسترسال في القراءة، ويقاطع للإدلاء بتعليق، فتتوجه الكلمات صوبه، فيما يبقى هو (مانغويل) غير منظور.. إن بورخيس الذي تخيّل الجنة مكتبة كبيرة ترك بصمته في وعي مانغويل، لاسيما في عشقه، وشكل علاقته بالكتب، والمكتبات. وعلى الرغم من أنه أصبح كاتباً لامعاً ومشهوراً فيما بعد، إلا أن همّ القراءة هو ما تلبس مانغويل على الدوام: "ليست الكتابة بل هي القراءة التي تبقيني صاحيا. القراءة هي مهنة المؤرق بلا منازع.. غرفة المكتبة باردة. أفتش بين الكتب، وقد بدأ ضوء النهار يلوح لتوّه ويراودني إحساس مريح بأنها تحوي كل ما أريد أن أعرفه، كما لو أنه امتداد لجلدي". والقراءة من وجهة نظره طقس انبعاث، وكل قارئ يمنح الكتاب قدراً متواضعاً من الخلود.

تقصى مانغويل عن تاريخ الكتابة ومن ثم القراءة في كتابه (تاريخ القراءة)، وسجل يومياته في صيغة تأملات قارئ شغوف، مثلما اطلق على نفسه، وعاد في كتاب (المكتبة في الليل/ ترجمة عباس المفرجي.. دار المدى ٢٠١٢) باحثاً في أراشيف الحضارات قديمها وحديثها عن تاريخ المكتبات، عبر قراءة حرّة ومنتقاة، ومن غير التقيد بالتقاليد المنهجية الأكاديمية الصارمة، ومن غير أن يسعى إلى وضع تاريخ آخر للمكتبات إلى جانب ما كتبه الآخرون.. يقول: "قررت أن أبدأ بالكتابة، لا لكي أصنّف تاريخاً آخر للمكتبات، أو أضيف مجلداً آخر للمجموعة الواسعة بشكل مرعب في علم المكتبات، بل كي أسجل فقط وقائع دهشتي".. فمانغويل ينجز قراءته الخاصة بأسلوب شاعري كما لو أنه يؤلف روايته/ مرويته عن (المكتبة) بوصفها كينونة فيزيقية، وهندسة عمارة وتنظيم، وعلامة حضارة، ومؤسسة مدنية، وظاهرة وجودية، وروحاً، وذائقة، وطريقة حياة، وخياراً شخصياً، وفسحة عزلة، ومديات حرية. وقبل هذا وذاك؛ أسطورة.. وإذن لماذا المكتبة في الليل؟. يقول مانغويل:

"إذا كانت المكتبة في الصباح توحي بصدى نظام واقعي بسيط ومعتدل للعالم، فإنها في الليل تبدو منتشية وسعيدة بفوضى العالم". وللمكتبة في الليل أشباحها، ولهذه الأشباح أصوات، لذا "فإن المكتبة في الليل ليست لأي قارئ". وكقارئ فإن المكتبة هي ملاذ مانغويل في الليل، وحين يطفئ ضوء المكتبة أخيراً فإنه يحمل معه إلى النوم أصوات وحركات الكتاب الذي كان قد فرغ من قراءته توّاً، وأن ذلك الكتاب ستموّن أحلامه بالحجج وبالقصص الحقيقية التي سيكتب عنها في النهار التالي

لا يعز عليّ سوى ترك مكتبتي الخاصة، فلولا الكتب في هذه الدنيا لوقعت منذ زمن طويل فريسة لليأس

شوبنهار

كتب احد الادباء العراقيين: لو انصف العراقيون تاريخهم الفكري، لأقاموا تماثيل ثلاثة رواد عراقيين، وهم الزهاوي الشاعر الفيلسوف لادخاله الأفكار الحديثة الى العقل العراقي، ورفائيل بطي رائد الصحافة الحديثة، وقاسم محمد الرجب الذي جعل مطبوعات الخافقين في متناول العراقيين.
ولعل الكاتب والصحافي مشكور الاسدي بما كتبه اراد من وضعه اسم قاسم الرجب في طليعة الاسماء الرائدة لليقظة الفكرية في العراق الحديث، لأدراكه العميق بما قدمته مكتبة المثنى ببغداد من خدمات جليلة للحركة الثقافة، والجهود الكبيرة التي بذلها صاحبها في تذليل الصعوبات امام تجارة الطبوعات مما دفع خير الدين الزركلي الى ان يخلد اسم الرجب في موسوعته الذائعة (الاعلام).
ومن المفيد التذكير بان مشكور الاسدي الاديب العراقي المنسي، كان صحفياً ناجحاً ومراسلاً ادبياً للعديد من الصحف والمجلات العربية وقد اثنى الدكتور طه حسين على جهوده في احاديثه التي ذكرها صهره الدكتور الزيات في كتابه الماتع (ما بعد الايام).

الزهاوي

بطي

الرجب

مجلة (المكتبة).. سيرة رائد ومكتبة ذائعة

رفعة عبد الرزاق محمد

قاسم محمد الرجب

ولم تكن تجارة الكتب في العراق، قبل ان يقبل قاسم محمد الرجب على تنظيمها، الا عملية تجارية صرفة تخضع لمتطلبات السوق، وقد ذكر الرجب في مذكراته المُعدة للنشر نماذج عديدة على ذلك فضلاً عن كونها تجارة غير رائجة لضعف المستوى الثقافي وتفشي الامية في مطلع القرن الماضي، وقد كان بيع الكتب يجري داخل المساجد ومدارس العلم، ولا نعلم عن باعة الكتب في القرن التاسع عشر الا النزر اليسير، حتى اذا أقبل القرن العشرون وبدأت الافكار الحديثة تدخل العراق بعد انبثاق الحركة الدستورية وبعض مظاهر الحريات العامة، بدأت عملية تجارة المبطوعات تأخذ مساراً متقدماً.

اسماء اولى

ومن الاسماء الاولى التي عملت في تجارة الكتب قبل ظهور المكتبات الشهيرة ببغداد، نذكر اسماء الكتبيين: عبد اللطيف ثنيان ومحمد رشيد السعدي وداود صليوا وعبد الامير الحيدري والملا خضر، ثم تأسست المكتبة العربية لصاحبها نعمان الاعظمي سنة ١٩٠٨ وتلاها افتتاح المكتبة العصرية لصاحبها محمود حلمي قبل الحرب العالمية الاولى ثم ظهرت قائمة لكتبيين عراقيين، جديرة بالتنويه والتحقيق، ضمت فيما ضمت: شمس الدين الحيدري، محمد جواد حيدر، عبد الكريم زاهد، عبد الكريم خضر، حسين الفلفي، كاظم الحيدري، ابراهيم الكتبي وغيرهم غير ان اسم قاسم محمد الرجب الذي افتتح مكتبة صغيرة في سوق السراي سنة ١٩٣٥، اخذ شهرة ذائعة في سنوات قليلة ليصبح الاسم الاول بين الكتبيين العرب، بله العراقيين.
ولد قاسم محمد الرجب العبيدي الاعظمي سنة ١٩١٧ في الاعظمية وبها ونشأ واكمل دراسته الابتدائية ولم يواصل الدراسة وتفرغ للعمل منذ يفاعته لمساعدة اسرته على مواجهة مشاق الحياة وعمل في مكتبه قريب له، وهو الكتبي العراقي الرائد نعمان الاعظمي صاحب المكتبة العربية ببغداد (١٨٨٨-١٩٥٣) وكانت هذه المكتبة اشهر دور الكتب ومنتدى لرجال الفكر والعلم والادب، كما يعد نعمان الاعظمي من اوائل الناشرين العراقيين ومن اشهر مطبوعاته (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي، و(الحوادث الجامعة) الذي نسبه محققه مصطفى جواد الى ابن الفوطي ثم تراجع عنه فيما بعد.

وعلى الرغم من الفوائد الكبيرة التي جناها الرجب من عمله في هذه المكتبة اذ تعلم اسرار الكتبيين والناشرين، فقد عانى قاسم الرجب شظف العيش ومشاق الحياة، وقد قدم في مذكراته صورة طريفة لاستاذه نعمان الاعظمي ووسائله الطريفة في العمل الكتبي، غير ان المعية الرجب وعصاميته، وضحت منذ البداية، فقد برع في عمله وكسب خبرة واسعة في تجارة الكتب واحوالها.
وافتتح الرجب مكتبة صغيرة في وسط سوق السراي- سوق الكتبيين قبل انتقالتهم الى شارع المتنبي في منتصف الاربعينيات من القرن المنصرم- سماها (مكتبة المعري) سنة ١٩٣٥، ثم غير اسمها الى (مكتبة المثنى) بعد ان نصحه صديقه عبد الستار القره غولي- وهو من رواد اليقظة الفكرية- ليحصل على تخويل توزيع مطبوعات نادي المثنى بن حارثة. وفي غضون سنوات قليلة نمت مكتبة المثنى واتصل صاحبها بدور النشر العربية الكبيرة، وتوسعت خبرته وذاع امره بين كبار الكتبيين بعد ان بز العراقيين منهم، فتراجعت المكتبات الكبيرة الاخرى امام نشاطه واخذت منشورات مكتبة المثنى- وقسم كبير منها يطبع في القاهرة وبيروت- تنتشر بصورة مدهشة ولسعة نشاطها، انتقلت الى بناية كبيرة في وسط شارع المتنبي في النصف الثاني من الخمسينيات، كما حصلت على حق توزيع الصحف والمجلات العربية بعد انتكاسة المكتبة العصرية وتعرض صاحبها الى ازمة مالية.وفي الاول من نيسان سنة ١٩٧٤ توفي في بيروت قاسم محمد الرجب اثر نوبة قلبية مفاجئة، بعد مسيرة طويلة من العطاء والبذل. وبقيت مكتبة المثنى بعهدة انجاله على الرغم من السنوات العجاف التي المت بالثقافة العراقية في العهد الديكتاتوري وتراجع حركة الكتاب في العراق بعد تأسيس ما سمي بالدار الوطنية التي لعبت دوراً في ضعف الحركة الفكرية وضعف الحركة الكتبية في العراق.

حريق المثنى

وحاقت بالمكتبة نكبة جسيمة ففي صبيحة يوم الجمعة ٢٠ آب ١٩٩٩، شب حريق هائل في المكتبة اتى على كل شيء في المكتبة ولم يبق فيها ورقة صغيرة، ولم تعرف اسباب الحريق الى يومنا هذا، مع ان الدفاع

المدني ذكر يومئذ ان الحريق وقع بفعل فاعل (!!) وبقي اسم الجاني مجهولاً بعد ان فقدنا مكتبة عامرة باقدم المطبوعات العربية وانفسها مما نشر في مغارب الارض ومشارقها.
ومما يضيف الى الاهمية التاريخية لمكتبة المثنى ببغداد، ما يلي:
١- بدأت المكتبة منذ اوائل الستينيات من القرن الماضي مشروعها الكبير بأحياء المطبوعات العربية النادرة وهذا المشروع من اهم المشاريع الثقافية التي اضطلعت بها جهات غير رسمية فقد نهدت المكتبة الى اعادة طبع نوادر الكتب العربية ونفائسها عن نسخها الاصلية بالاوفست لتيسيرها الى طلاب الثقافة والمعرفة ومن هذه النوادر، كتاب البدء والتاريخ لأبي زيد البلخي نسبة وهو لمطهر بن طاهر المقدسي، اعتنى بنشره المستشرق الفرنسي كليمان هوار بباريس سنة ١٨٩٩ وتاريخ الحكماء للقفطي وقد طبع في ليبزك سنة ١٩٠٤ وكتاب النقط والضبط لابن القيسراني وطبع في ليدن سنة ١٨٦٥. وكتاب الأعتبار لاسامة بن منقذ، الذي حققه فيليب حتي وطبعه في نيويورك ومن الطريف ذكره ان قاسم الرجب ذكر في مذكراته ان نوري السعيد اقتنى الكثير من نسخ الكتب ووزعها بين اصدقائه كما يضمه الكتاب من تجارب انسانية ومشاهد تاريخية نادرة.
٢- اصدار مجلة (المكتبة) سنتحدث عنها بعد قليل.
٣-المجلس الادبي الكبير في الفرع الرئيسي للمكتبة في شارع المتنبي وقد حضره كبار الكتاب والادباء والعلماء والوجوه الشهيرة في المجتمع، وقد بقي هذا المجلس الى السنوات الاخيرة من حياة المكتبة.
٤- وكتب الرجب مذكراته ومشاهداته سماها (مذكراتي في سوق السراي) وهي صفحات مطوية وطريفة من تاريخ الفكر العراقي الحديث، نشر القسم الكبير منها في مجلته (المكتبة) وقد اعدت اخيراً للنشر، وسنقتبس بعد قليل بعضاً من هذه المذكرات.

مجلة المكتبة

اصدر قاسم محمد الرجب مجلة باسم (المكتبة) تعنى في بدء امرها باخبار الكتب ومؤلفيها، وقد صدر العدد الاول منها في آيار ١٩٦٠ وصدر عددها الاخير سنة ١٩٧٢. وسرعان ما تحولت هذه المجلة من نشرة مكتبية الى مجلة ادبية وعلمية قيمة وقد حملت الاعداد الاولى من المجلة عبارة: قائمة شهرية تصدرها المثنى لصاحبها قاسم محمد الرجب، ثم تغيرت هذه العبارة الى: المكتبة مجلة الكتب والكتاب، واصبح المرحوم مهدي القزاز رئيساً لتحريرها والمحامي عبد الكريم جواد مديراً مسؤولالها، وتطبع في مطبعة شفيق.
وقد اسهم في تحرير هذه المجلة الرائدة في بابها نخبة من كبار الكتاب والمثقفين في العراق وخارجه، واكثرهم لهم صلة وثيقة بصاحبها ويحضر مجلسه الادبي الرائع في باحة المكتبة التي كانت تشغل داراً تراثية كبيرة في منتصف شارع المتنبي ولم تزل قائمة، ومن هؤلاء: مصطفى جواد، احمد حامد الصراف، كوركيس عواد، صالح احمد العلي، يوسف عز الدين، محمود العبطة، عبد القادر البراك، سلمان هادي الطعمة، فؤاد جميل، جليل العطية، محمد هادي الاميني، علي جواد الطاهر، علاء الدين خروفة، مشكور الاسدي، حكمت توماشي، عبد الكريم الامين، خضر عباس الصالحي، احمد حامد الشربتي، سليم المعروف، يوسف سعيد، فاروق عمر فوزي، خالد محسن اسماعيل، صفاء خلوصي، ناجي محفوظ، عبد العزيز الدوري، جميل احمد الكاظمي (الاسماء وردت هنا بدون ترتيب معين) ومن الكتاب العرب: محمد سعيد العريان، حسين مؤنس، فؤاد افرام البستاني، عبد اللطيف حمزة، شكري فيصل، وغيرهم.
وتضمنت ابواب المجلة المختلفة الكثير من الفوائد

شأن من يملك كتباً كثيرة، ولم يقرأ منها شيئاً، شأن البخيل والكنز الذي جمعه

روكرت

التاريخية وحركة الكتاب العربي في كل مكان، واخبار المخطوطات وخزائنها وفهارسها. ومن هذه الابواب: مطالعات في الكتب، اخبار الادب والادباء، معرض الكتاب، رسائل القراء، اخبار ثقافية، صدر حديثاً، كتب جديدة. غير ان اطرف ما نشرته هذه المجلة واهمها حلقات كتبها قاسم الرجب باسم (مذكراتي في سوق السراي) ضمنها ذكرياته عن تجارة الكتب واحوال الكتاب والمؤلفين منذ ان كان عاملاً في المكتبة العربية لصاحبها سلمان الاعظمي، وقد نشر عشرين حلقة من هذه المذكرات ونشر بعض الحلقات في جريدة (البلد) البغدادية لصاحبها عبد القادر البراك الذي اصبح محرراً لمجلة (المكتبة) بعد مهدي القزاز وقد اعدت اسرة الرجب هذه المذكرات للنشر ثانية.

شذرات من مذكرات الرجب

(الحلقة الاولى): صلتي بسوق السراي تعود الى سنة ١٩٣٠-١٩٣١ يوم تركت المدرسة واتصلت به وكان عمري اثنتي عشرة سنة عندما اشتغلت عاملاً صغيراً بالمكتبة العربية لصاحبها نعمان الاعظمي، وكنت يومذاك في الصف السادس من المدرسة الابتدائية وكان مرتبي الشهري ٦٠٠ فلس ولم اكن قد رايت بغداد كثيراً لانني كنت من سكنة الاعظمية فكنت اراها بالسنة مرة او مرتين وفي ايام الاعياد فقط فلما اتصلت بالمكتبة وبالسوق كنت اعجب لما تحتويه من كتب اذ لم اكن قد رايت مكتبة من قبل. كان سوق السراي آنذاك زاخراً بالمكاتب الصغيرة منها والكبيرة امثال المكتبة الوطنية لعبد الحميد زاهد والمكتبة الاهلية لعبد الامير الحيدري والمكتبة العصرية لمحمود حلمي ومكتبة الشرق لعبد الكريم خضر.. وهناك مكتبات صغيرة منتشرة من اول السوق الى آخره ومنهم من يعرض بضاعته على الرصيف امثال حسين الفلفلي واحمد كاظمية والحاج محمد وسامح اسماعيل ومن المكتبات الصغيرة التي ما زالت صغيرة حتى اليوم مكتبة التجدد لحقي بكر صدقي ومكتبة الشبيبة لرشيد عبد الجليل والمكتبة الحديثة للحاج محمد ومكتبة الزوراء لحسين الفلفلي اذ لم تتقدم هذه المكتبات بالرغم من وجود طاقات من الذكاء عند البعض منهم ومن حسن المعاملة عند الاخرين.

عباس العزاوي اهم زبون

وكان يتردد الى السوق الكثير من العلماء والادباء والشعراء امثال جميل صدقي الزهاوي الذي كان يكتري الروايات باستمرار من نعمان الاعظمي وغيره فيدفع له اجرة عن قراءة كل مجموعة منها روبية واحدة أي ما يساوي اليوم ٧٥ فلساً وطه الراوي الذي كان اكبر مشجع ومرغب للكتاب في جميع مجالسه الرسمية والبيتية ونوري السعيد ويوسف العطا وبهاء الدين الشيخ سعيد واسماعيل الواعظ ومحمد السماوي ومصطفى علي وغيرهم وكان اكبر زبون للسوق وللكتاب هو عباس العزاوي المحامي، فكان يتردد الى السوق اربع مرات او اكثر في كل يوم فلا يفوته كتاب مطبوع ام مخطوط ويصحبه اخوه علي غالب العزاوي المحامي، وكان رجلاً ذكياً مهذباً وكان عباس يستشيره عند كل صفقة يقع عليها اختياره، واذا ما وقع كتاب خطي ولم يشتره العزاوي فانه يبقى سنوات دون ان يباع اذ لم يكن هناك يومذاك من يتسوق الكتاب.

موا..

(الحلقة الرابعة).. حتى ظهرت مكتبة المتحف العراقي في بغداد وقد شاهدتها سنة ١٩٣٥ فكانت عبارة عن دولاب صغير فيه بعض الاجزاء من كتب باللغة العربية والانجليزية لا تزيد على مائة مجلد فلما عين كوركيس عواد فيها ملاحظاً اهتم بتنميتها واخذ يشتري اليها كل ما يتمكن من الحصول عليه من المصادر والكتب النادرة بمختلف اللغات وكان مدير الاثار العامة ساطع الحصري فبذل مجهوداً كبيراً وعزز رغبة كوركيس عواد، فتظافرت الجهود فنمت المكتبة حتى اصبحت الان اكبر وانظم مكتبة في العراق وكان ساطع الحصري يفاصل عند شراء الكتب من أي كان فاذكر مرة انني عرضت عليه كتاب اسمه (نزهة الزمن في تاريخ اليمن) للحجة الحسن طبعة هامبورغ وكان قليل الصفحات وثمنه مرتفعاً جداً فطلب مني تنزيل ثمنه وارسل لي مذكرة كتب عليها بخطه (موا...) ولم يتم الكلمة، وبما انني اعرف بانه اذا لم يشتر هذا الكتاب من قبل مكتبة المتحف فانه سوف يبور ولا يتصرف تنازلت عن ذلك السعر فاكمل الحصري بعد ذلك كلمة (موافق).. وكان مدير المتحف عبد الرزاق لطفي وهو لا يقل عن ساطع بما قام به من خدمات لهذه المكتبة وهي تنظيم وتنسيق واهتمام بما تحتاجه من كافة متطلباتها.

فالح الصيهود

وكان من عملاء سوق السراي ولا سيما عملاء نعمان الاعظمي زبون من اكابر شيوخ العمارة ونائب في مجلس الامة هو الشيخ فالح الصيهود وكان عند انعقاد دورة المجلس يسكن بغداد ويتردد على السوق فيطلب من عندنا كل الكتب التي تبحث في الامور الحسنة كالقصص والملح والمناظرات مثل رجوع الشيخ الى صباه والايضاح في علم النكاح واخبار النساء لابن الجوزية ومحاضرات الادباء للراغب الاصبهاني وزهر الربيع وغير ذلك من الكتب وكان يقتني الكتب دون مساومة وربما دفع ثمن الكتاب مضاعفاً باختياره، فمثلاً كتاب عيون الاخبار لابن قتيبة يتكون من اربعة مجلدات وفي المجلد الرابع منه كتاب خاص بالنساء ولذا فانه يشتري الكتاب كاملاً ويدفع ثمنه، الا انه يترك المجلدات الاخرى ويكتفي بالرابع.

واذكر ان عبد الستار القره غولي رحمه الله كان يحتفظ في مكتبه بنسخة مخطوطة من كتاب رشف الزلال من السحر الحلال للسيوطي، وهو يتالف من عشرين مقامة كتبت على لسان عشرين علما دخلوا على زوجاتهم في عيد الفطر، فوصف كل واحد منهم ما بان له من ذلك حسب علمه وعمله وفنه فقدمه الى نعمان الاعظمي الذي استنسخ منه نسخة اعطاها الى القره غولي وباع الاصل للشيخ فالح الصيهود وعرض القره غولي النسخة التي اخذها الى احد كبار الضباط هو عبد المطلب الامين، فاعطاها الى صبري الخطاط الذي نسخ بخطه الجميل منها نسختين اعطاني احداها وما زلت احتفظ بها الى يومنا هذا.

عبد الكريم خضر

كان سوق السراي يتأثر بالروح الوطنية المتأججة بسبب فلسطين ووعد بلفور والثورة في كافة المدن الفلسطينية اشد التاثر، وكان يهيئ السوق للمظاهرات والاضرابات ويحثهم عليها عبد الكريم خضر صاحب مكتبة الشرق فكان يحرضنا جميعاً على غلق مكتباتنا فاذا ما تاخر احدهم ذهب اليه مسرعاً واذا ما لاحظ ان السوق يتباطأ في غلق الابواب فانه ينزل من مكتبته ويمر على المكتبات واحدة بعد الاخرى وخلفه بعض الشبان والصبيان وهو ينشد هذه الكلمات المؤثرة:

قم من القبر حزينا يا امير المؤمنين

قتل الصهيون في القدس خيار المسلمين

وكنا نرددها جميعاً بعده ونمشي خلفه، ولابد من امتثال امره، اذ كان مخلصاً صادقاً وهو لا ينفك يصف احوال العرب والمسلمين في فلسطين واذلالهم من قبل اليهود، واول من يتاثر به السوق هو غلق خان الشابندر للصاغة حالياً يسمعون الاناشيد.. وكنت اشاهد السيد حسون ابو الجبن لابساً الكفن مضرجاً بالدم في منظر مؤثر جداً يتقدم المظاهرة وهي تسير في شارع الرشيد.

امجد الزهاوي

ومن عملاء السوق الفضلاء العلامة الجليل والفقيه الكبير الشيخ امجد الزهاوي، وهو يقتني كتب الحديث والفقه والتفسير وقليلاً من كتب التاريخ والادب وعندما يختار الكتب ويريد شراءها فانه لا يساوم على اثمانها بالرغم من ان اصحاب المكتبات لا يقر لأسعارهم قرار وعند تمام موافقته على شراء صفقة الكتب فانه لا يدفع ثمنها حتى يلقن البائع صيغة البيع الشرعية كأن يقول: انني اشتريت منك كذا وكذا بمبلغ قدره كذا فهل وافقت؟ فيقول البائع: وافقت، فيدفع اليه الثمن ويقول له: هل قبضت؟ فيقول البائع: نعم قبضت، فيتسلم الكتب واذا اراد الشيخ امجد الدخول الى المكتبة فانه لن يدخلها قبل ان يخلع نعليه ويضعهما تحت ابطه وهو بهذا يتحاشى ان يدوس ورقة، اذ ربما كان في تلك الورقة لفظة الجلالة او أي اسم مقدس آخر او أي حرف يمكن ان يكون رسماً مقدساً..

مطبعة كردستان

واذكر ان شخصين من لواء السليمانية هما فرج الله زكي الكردي ومحيي الدين صبري الكردي غادرا العراق الى مصر فالتحقا بالجامع الازهر مجاورين فيه يطلبان العلم، فتخرجا فيه وفتح كل واحد منهما مكتبة ومطبعة سمياها مطبعة كردستان العلمية ونشرا كثيراً من الكتب الإسلامية القيمة مثل مشكل الحديث لابن قتيبة وكثيراً من رسائل ابن تيمية ومؤلفات ابن القيم الجوزية وغير ذلك مما لم يسبق لاحد ان طبعه طبعة علمية صحيحة ونشره، ولكنهما بعد مدة اعتنقا البهائية واخذا ينشران الكتب والرسائل البهائية موافقة لمبادئهم ومؤيدة لها ونشرا خطب عبد البهاء في امريكا وغير ذلك، وكان يصدران مطبوعاتها بعبارة (يا الهي بهاء) وهذا من المفارقات الغريبة التي قلما تقع.

الاعلان

كان روفائيل بطي من محبي مكتبة المثنى الناشئة ومشجعيها، وكان لا يمر يوم الا وزارها، واقترح علي يوما ان يحجز لي حقلاً صغيراً في جريدته (البلاد) ليقرض بعض الكتب التي تصل الي ولم اكن يومئذ اهتم بمثل هذا ولكن ترغيبه والحاحه علي باستمرار حملاني على قبول الاقتراح فهيأت بعض الكتب واعددتها للتقريض بناء على رغبته، وكان اول اعلان كتبه لي ونشره في جريدته اعلاناً عن كتاب صغير هو (النزاع والتخاصم فيما بين بني امية وبني هاشم) لتقي الدين المقريزي بعد ان كان قد اعيد طبعه في القاهرة عن طبعة ليدن ولم اكن اتصور ان يكون لمثل هذا الاعلان البسيط كل هذه الاهمية وهذا الاثر فقد جئت -كعادتي- صباح يوم الى المكتبة واذا بي ارى جمعاً من الناس ينتظروني لافتح المكتبة وكلهم يبتغون شراء هذا الكتاب فبعت لهم وبقيت ابيع منه طول النهار حتى نفدت نسخه.. ورفائيل بطي اديب المعي وصحفي قدير وهو ممن يمتلك مكتبة صحفية فيها كل طريف، وقل من يهتم من الصحفيين بهذه الناحية الا انني رايت كلا من كامل الجادرجي السياسي والصحفي لا يصل كتاب الا اقتناه وتوفيق السمعاني الذي فاقت مكتبته جميع المكتبات بما فيها من مختلف الكتب والمراجع بالعربية والسريانية وهو ممن يرتاد المكتبة العصرية ويجلس فيها ثم يقصد مكتبة المثنى وهو صديق الجميع.

مصطفى علي والاثري

وكان من عملاء المكتبة منذ ان فتحت الى سنة ١٩٥٣ مصطفى علي وزير العدل في حكومة عبد الكريم قاسم وقد توثقت صلتي به كثيراً اذ انه يعد من اصدقاء المكتبات ولا سيما مكتبة المثنى فهو لا يشتري كتاباً ما من أي جهة كانت اذا وجده في هذه المكتبة وهو ممن يهتم بالكتب الرصينة لا سيما كتب التراث العربي القديم الذي يميل اليه اكثر من غيره، وفي بيته مكتبة قيمة فيها امهات الكتب والمراجع ومن عادته انه لا يشتري الكتاب قبل ان يورقه بباب المكتبة، وهو معروف لدى الكثيرين بسرعة زعله لاتفه الاسباب وكنت اتحاشى كل ما يزعجه، ولكنني لم اوفق دائماً، وهو عند الشراء لا يساوم كما يفعل صديقه بهجة الاثري الذي اذا اراد كتاب وهو امر نادر جداً وكان ثمنه ديناراً مثلاً فان من حسن حظ البائع اذا دفع له مائة فلس دون الجر والعر والكر والفر حتى يدع صاحب المكتبة يجري وراءه ملتمساً اعادة الكتاب اليه او دفع ثمنه، ولذا فقد زهد الاثري في شراء الكتب واكتفى بان يستعير ما يحتاج اليه منها للمراجعة من مكتبة المجمع العلمي العراقي ومن مكتبات اصدقائه ولذا فان مكتبته الخاصة لا تتناسب وشهرته الادبية واذا اراد كتاباً فانه يطلب -رغم غناه وسعة ذات يده- من البائع ان يتقاضى من الكتاب نسخاً من كتيب صغير له هو (مأساة الشاعر وضاح) او من كتبه المدرسية كالمدخل في الادب العربي او المجمل التي كان يقرر تدريسها قبل تأميم الكتاب المدرسي ومع ان مؤلفات العلامة الشيخ محمود شكري الالوسي اية في الجودة والاتقان، فانه يحلو للاثري ان يكتب على غلاف كل كتاب منها (حققه وهذبه محمد بهجة الاثري) ولم يكتف الاثري بذلك بل جعل من نفسه الوارث الشرعي الوحيد للعلامة الالوسي رحمه الله.

كتاب المدى للجميع

ملحق خاص بحملة (كتاب المدى للجميع)

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

مدير التحرير
علي حسين

الاخراج الفني
خالد خضير

التصحيح اللغوي
محمد حنون

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

حملة .. كتاب المدى للجميع

نص علينا ونص عليك

%50

فروع مكتبات المدى :

السعدون / الباب الشرقي / القشلة / المتنبي / اربيل شارع برايتي

Mobille: 0771 303 5555

E-mail:bookshop@almada-group.com